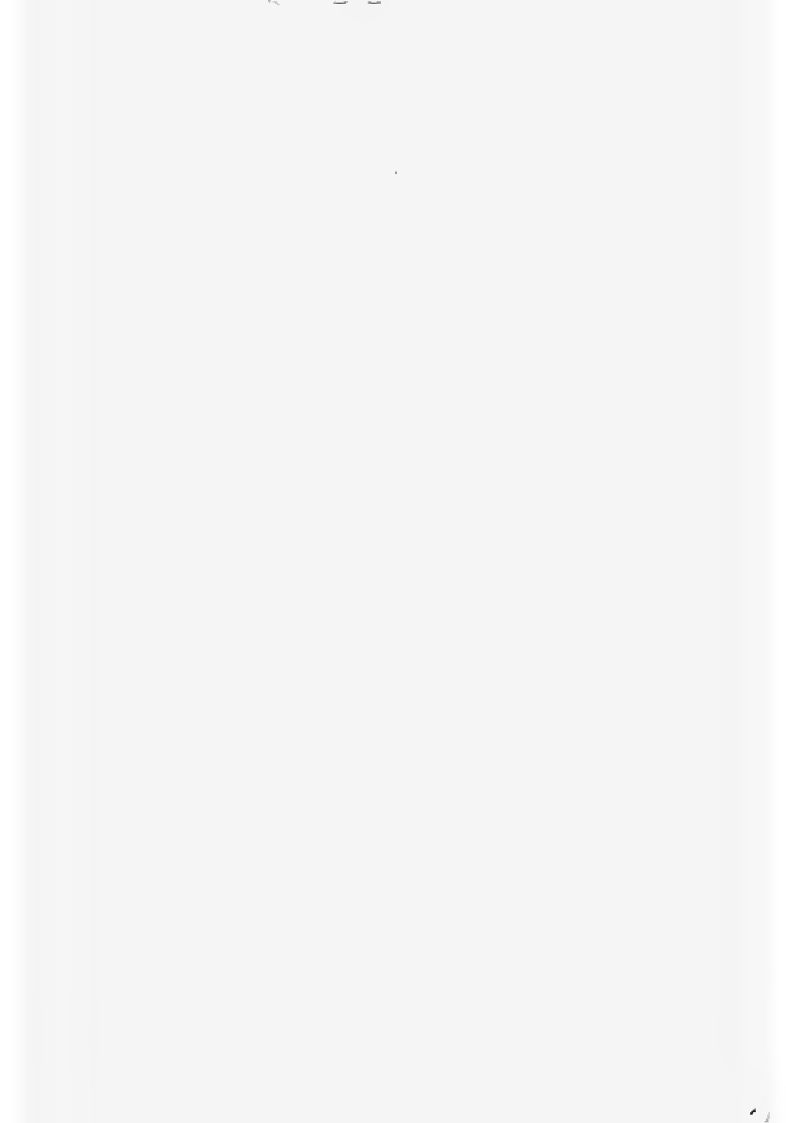


مع الله

الجزء الثالث

الشيخ محمد الغزالي

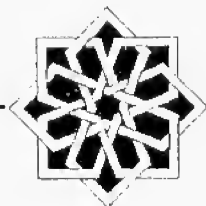


مع الله

دراسات فى الدعوة والدعاة

الجزء الثالث

الشيخ محمد الغزالى





مقدمـــة

بحمد الله وتوفيقه تصدر هذا الجزء الثالث من الكتاب القيم (مع الله) لفضيلة الشيخ محمد الغزالى الذى أفنى عمره - بارك الله فيه - رافعا راية الدعوة حاملا لواءها .. بمؤلفاته الفريدة التى أنارت طريق السالكين ، وبخطبه الرائعة التى تفتحت لها العقول والقلوب . وبتدريسه منهج الدعوة لإعداد الدعاة إلى الله فى مشارق الأرض ومغاربها زهاء خمسين عاما من عمره المديد .

يقول فضيلة الشيخ محمد الغزالى فى مقدمة كتابه (مع الله) مبينا الهدف الذى يرمى إليه من تأليف هذا الكتاب : « هذا عنوان يوحى بأن الكتاب الذى يتناوله القارىء يتضمن معانى كثيرة من ذلك اللون المثير للخشوع ، الباعث على الإنابة ، أو لعله صلوات خاشعة تغمر المحاريب بالأسى الرقيق ، أو دعوات محتبسة ترسلها عاطفة ملتاعة وتتضمنها صور شتى بأذن (يستمع) إليها رب العالمين حين يتردد صداها بين الأرجاء . إنما قصدت أن يكون الإنسان (مع الله) على نحو آخر .. مشحون بالحركة بالحياة .

إن المعية التى أقصدها هنا هى التى تصحب المرء فى حياته كلها وتصبغها بصبغة ثابتة ملازمة له فى حِلِّه وترحاله ، فى صحواته وغفواته ، فى بيعه وشرائه ، فى صداقته وخصومته ، فى وحدته وعشرته » .

ويقرر فضيلة الشيخ محمد الغزالى فى مقدمته : (إن هذا الكتاب ألفته للدعاة وليس للعامة) ذلك أن تكوين الدعاة يعنى تكوين أمة ، فالأمم العظيمة ليست إلا صناعة نفر من الرجال الموهوبين .. لهذا فقد حرصت أن أصفى لهم المنهل العذب ، ليكونوا طلائع النور فى أمة طال عليها الليل ، وبوادر اليقظة فى أمة تأخر بها النوم ليأخذوا بيد المؤمنين الظامئين إلى معرفة الله والسير إليه على منهاج قويم) .

فى الجزء الأول تحدث فضيلته عن التعريف بالدعوة والدعاة ، والحاجة إلى الدعوة وعن خيرية الأمة الإسلامية ورسالتها الخالدة ، كما أفاض فى الحديث عن القومية العربية ومقوماتها ، والحكم فيمن لم تبلغه الدعوة . أما فى الجزء الثانى فقد تحدث عن صفات الدعوة وعن تدعيم الصلة بالله وعن اصلاح

النفس ، وأفاض فى الحديث عن الدين والعلم وعن أزمة التدين وكيف نقيم أساس الوحدة العظمى .

وبين يديك - عزيزى القارىء - الجزء الثالث من هذا السِّفر القيّم الذى تقدمه لك مكتبتك (المكتبة الإسلامية) التى تصدرها إدارة الكتب والمكتبات بمؤسسة أخبار اليوم ، ورجاؤها أن تكون قد قامت بواجبها نحوك ونحو الدعوة والدعاة .

والله من وراء القصد .

أخبار اليوم

بسم الله سنتناول فى هذا الجزء بالشرح والتعليق بعض عناوين الموضوعات وبحوث معاصرة[1] مضافا إليها ما نراه ، ونبدأ بموضوع :

* * *

الكتابة المعاصرة

١ ـ الدين ضرورة اجتماعية :

« يذهب بعض المثقفين الذين لم يتعمقوا فى دراسة الأديان ، ولم يتشربوا تعاليمها السامية ، إلى أن الأديان لا تنهض إلا بين الشعوب البدائية . وأن المدنيات الحديثة ـ بما تحمله من قوانين تشريعية ، ومبادىء أخلاقية ، ومذاهب فلسفية ، واتجاهات علمية ـ تغنى عن إعتناق الأديان . وهو خطأ شنيع ، لأن الدين فطرة أصيلة فى النفوس البشرية لا يغنى عنها قانون ، ولا فلسفة ولا تثقيف .

ومن الخير تأليف كتاب يعالج هذا الموضوع ، على أن يستمد نماذجه من واقع حياة الأمم والشعوب » . أقول : ونحن ـ فى هذا الكتاب ـ قد دعمنا هذه الحقيقة بما لدينا من أدلة . ولكننا يجب أن نوضح ما هو الدين الذى يوصف بأنه ضرورة اجتماعية ؟

إن الدين الصحيح وحى نازل من السماء ، وليس إفكاً نابتاً من الأرض . ومن النقائض المدهشة أن تسمى « البوذية »

---

(١) أخذنا هذه العناوين عن النشرة التى أصدرها المؤتمر عن الكتاب الإسلامى والبحوث التى يجب أن يتعرض لها الآن .

ونحن مضطرون للقول ، بأن أكثر هذه البحوث ، قد ألفنا فيه كتباً طبعت مثنى وثلاث ، وإن إخواننا فى ميدان الخدمة الإسلامية يقومون بهذا العبء فى مثابرة وصبر مع ما يلقون من جحود غريب .

والله ولى التوفيق وبه الحول والطول .

و« الكونفوشيوسية » و« الزرادشتية » أدياناً وأن يوصف الرجال الذين اختلقوها بأنهم أنبياء ، مع أنهم لا يعرفون الله الواحد ولا يدعون إليه ، بل ينكرونه ويجحدون رسالته .

فكيف توضع هذه الأفكار الأرضية فى مصاف الشرائع السماوية ؟ إنه ليس هناك وصف مشترك بين هذه وتلك . ولذلك يجب اطراحها ابتداء من هذا المجال . ثم إن الاعتقاد المنتسب إلى السماء يجب - ليستبقى حرمته - أن يحترم نسبته وأن يصون سيرته ، وأن يقيم هيمنته فى الداخل وعلاقته فى الخارج على دعائم من تقوى الله ، ومحاولة إرضائه بالأسلوب الذى يعرفه ويؤثره لأتباعه .

ومن ثم ، فالتدين المنحرف ، القائم على استئصال الشعوب واجتياح حقوقها آفة اجتماعية ، لا ضرورة اجتماعية . بل إنه - على الأصح - مشكلة عالمية ينشد لها العلاج وتلتمس الحلول . . إن الدين حقاً ضرورة اجتماعية .

وتغيير الواقع الإنسانى بجمع الناس على دين واحد مستحيل . . . فليبق إذن حق الحياة محفوظاً لضروب الإيمان المنتمية إلى السماء . ولتعط جميعا ضمان الدعوة إلى الله دون حرج أو ضغط ، ودون ختل أو مكر . والإسلام يرحب بهذه الخطة . ومن حقه - وقد أقر بالحياة لغيره - أن يظفر بإقرار الحياة له ولأمته .

٢ - الإسلام والديانات السابقة :

ينبغى إعداد هذا الكتاب [1] لإثبات أن الإسلام لا يعادى الديانات السماوية السابقة ولا يخالفها . ولكنه يتمم ما يحتاج إلى التفصيل ،

(١) أشبعنا هذا الموضوع فى كتبنا « نظرات فى القرآن » و« الاستعمار أحقاد وأطماع » و« عقيدة المسلم » و« من هنا نعلم » .

ويصحح ما وقع فيها من تحريف . ويجب إثبات أن الإسلام لم يتعرض قط لتصحيف ولا لتحريف ، فلا يزال كتاب الله محفوظاً مصوناً من الملفقين والمبتدعين « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »[١] .

« أما السنة الشريفة فقد درسها أعلام رجال الحديث منذ أقدم العصور ، ووضعوا لها الضوابط والقواعد والموازين التي تميز الأصيل عن الدخيل » . أقول : يحسب كثير من الناس أنه كما تنقسم الكلمة مثلا إلى اسم وفعل وحرف تنقسم الأديان إلى يهودية ونصرانية وإسلام ، وهذا خطأ فالدين عند الله واحد .

والأنبياء أجمعون - وبينهم « موسى » و« عيسى » و« محمد » عليهم الصلاة والسلام - مبلغون عن الله أصول هذا الدين الواحد لا تفاوت هنالك ولا اختصام . وإذا كان هناك فرق يذكر فهو أن الثوب قد يطول أو يقصر حسب نمو الجسم وأن « موسى » كسا العالم بلباس التقوى حيناً . . .

فلما جاء « محمد » صلى الله عليه وسلم وجد الثوب قد تغير أو تمزق أو انكمش فرده كما كان وضيئاً ، وزاد فيه ما استدعاه نمو الإنسانية من وفرة واتساق . إن البذلة التي تصلح للغلام لا تصلح للرجل المكتمل القوام . فكيف الحال إذا كان النسيج القديم قد أمسى كطيلسان ابن حرب ؟ طال ترداده إلى الرفو حتى بقى الرفو وانقضى الطيلسان !!

إن « محمداً » صلى الله عليه وسلم جاء مجدداً لما سبق من وحي ، ومؤكدا لما نزل قبل من تعاليم . وذاك شأن النبيين القدامى يصدقون من قبلهم ويعهدون لمن بعدهم ، حتى ختمت الرسالات كلها بالإسلام . فكان هذا الإسلام جامعاً لما توزع فيها من حق وعدل . وفضل ونبل .

وشاءت عناية السماء أن تقيض لهذا الدين حفظة ينتصبون دون تراثه

---

(١) الحجر : ٩ .

قرناً بعد قرن فنجا من الغوائل التى تحت غيره ، ووصل إلينا مضموناً كما عهد به إلى نبيه . ولذلك يمكننا أن نصفه بأنه المصدر الموثق لرسالة « موسى » و« عيسى » عليهما الصلاة والسلام . وأنه كلمة الله التى لا يرقى إليها ريب ، ولا تلتبس بها أظنة . ومع ما طرأ على الديانات الأولى من تغيير ، فإن لأتباعها ذماماً لا تهدر ، وعهوداً لا يخاس بها .

٣ ـ مصادر التشريع الإسلامى :

لم تكن أصول التشريع الإسلامى فى عصر ما خاضعة لشهوة حاكم أو نزوة قائد ، أو منبثقة من تقلبات الظروف والأحوال . وإنما هى تستند إلى أصول ثابتة : من الكتاب والسنة . ومن الخير لعامة المسلمين أن يعرفوا شيئاً عن هذه الأصول التى عالجها أئمة المذاهب الإسلامية ، واستنبطوا منها مقومات التشريع الإسلامى .

ذلك . . ومع أن « الإجماع » من مصادر التشريع عندنا فإن إجماع الناس لا يؤبه له إلا إذا كان له إسناد من نص وارد . إن المشرع هو الله وحده . . وليس لبشر أن يتعبد الناس بشرع من عنده . ولا لمجمع من المجامع حق إنشاء عقيدة ، أو إحداث عبادة . .

أما المصالح العامة فإن كفالتها ترجع إلى السياسة الشرعية ، واجتهاد أولى الأمر . والتقنين فى هذا المجال قد يختلف باختلاف البيئات واختلاف الأفهام . والإسلام يتسع لشتى وجهات النظر ، ولا تعتبر وجهة منها ديناً ، إذ الدين أعم منها ومن سواها .

٤ ـ المذاهب الفقهية الإسلامية :

ترجع طوائف عديدة من المسلمين فى مباشرة العبادات ومزاولة المعاملات إلى المذاهب الأربعة : مذهب « أبى حنيفة » و« مالك »

و« الشافعى » و« ابن حنبل » كما ترجع طوائف أخرى إلى المذهب الزيدى أو مذهب الاثنى عشرية وهناك مذاهب فقهية إسلامية حوت من الآراء التشريعية الخالدة العميقة ما يعد مفخرة من مفاخر الإسلام .

مثل المذهب الظاهرى المنسوب إلى « داوود الظاهرى » ثم إلى « ابن حزم » ومثل مذهب « الأوزاعى » و« الليث بن سعد » ، ومثل المذهب الأباضى الذى لا يزال منتشراً فى عمان . ومن الخير أن يعرف المسلمون نبذة عن هذه المذاهب الإسلامية العظيمة التى تمثل إنتاج العبقريات الإسلامية فى ميدان التقنين والتشريع والاجتهاد .

ونحن نوصى بدراسة هذه المذاهب ورجالها دراسة علمية مجردة . وستنكر الحملة التى يشنها المستمسكون بفقه السنة على تلك المذاهب وأئمتها .. ومع أنى أوثر تلقى الأحكام من مصادر الشريعة الأولى ، وأحب الاتصال المباشر بالنصوص ، وأكره مطالعة المتون التى ألفها فى العصور المتأخرة الفقهاء المذهبيون .

إلا أن ذلك لا يغمط الأئمة السابقين قدرهم ولا جهدهم . ولا يبيح لنا اعتبار فقههم مقابلا لفقه السنة . كان للرسول مذهب ، ولهؤلاء الرجال منزع يبتعد عنه . إن هؤلاء الأئمة أقاموا علمهم ـ أولا وآخراً ـ على دعائم من السنن والنصوص .

بيد أنهم أعطوا أنفسهم حق الترجيح والموازنة ، ورد ما لا يتفق مع القواعد العلمية التى اطمأنوا إليها فى الفهم والقبول .. ومن حق أى باحث أن يستريح إلى اجتهاد ما ، مادام هذا الاجتهاد مضبوطاً بقيود محكمة من أصالة النظر ورحابة الإدراك .

والمرء منا عندما يخوض وحده محيط الآثار الواسع يجد نفسه مضطراً إلى اعتماد نص وتأويل آخر ، أو توهين سنده ، على حين يلجأ غيره إلى عكس مسلكه .!!

وعندى أنه من الخير أولا دراسة النصوص كلها . ثم دراسة جميع الأقوال الفقهية التى أثرت عن الأربعة المشهورين وعن غيرهم من فقهاء الأمصار وعن « الخوارج » و« الزيدية » و« الإمامية » و« الظاهرية » إلخ . على أن تكون هذه الدراسة المقارنة حرة مطلقة . وعلى أن يباح - بعد - لأى مسلم أن يتخير منها ما يحب ، أو أن يلتزم تقليد مجتهد بعينه . . .

إن الاجتهاد الإسلامى لملاحقة الأحداث ومتابعة الزمن السائر ، أصابه ضر شديد عندما احتبس داخل السجن المذهبى الضيق ، وعندما أزرى به التعصب لآراء مجتهد واحد . ونريد الآن أن ننتفع بآراء أجدادنا العلمية كلها ، وأن يعتبر المسلم العادى أئمته المقتدى بهم فى الفقه هم سلفه الصالح جميعاً ، فلا ينتمى لواحد ، ويتجاهل الآخرين .

٥ - المجتهدون فى الشريعة الإسلامية :

يزعم بعض المقلدين أن باب الاجتهاد أصبح مغلقاً الآن . ولكن تطور الحياة ، وتجدد الأحداث واختلاف الأحوال يطالعنا بقضايا حديثة وأوضاع اجتماعية لم يعرفها القدماء من المشرعين الإسلاميين . ومادامت مصادر التشريع الإسلامى باقية ، فلكل عالم متمكن من الدين متعمق فى الدراسات العربية والإسلامية أن يقترح ما يناسب العصر من آراء دينية . على أن تكون مستمدة من المصادر الإسلامية الكبرى معززة بالبرهان والدليل .

وقد ظهرت فى الإسلام عقليات جبارة قدمت إلى التشريع الإسلامى أجل الخدمات . فمن الخير أن تجلو حياة هؤلاء العباقرة وآثارهم فى كتاب موجز يظهر المسلمين على ألوان البطولة الفكرية عند علماء « التشريع الإسلامى » :

إن العلماء الآن ربما لا يحتاجون إلى اجتهاد فى ميدان العبادات

وأحكامها . ذلك أن السلف لم يدعوا مجالا لأحد فى هذا المضمار . والثروة التى تركوها تعجز العادين . وقد نملك ترجيح رأى على رأى ، وتغليب حكم على حكم فحسب ، أما التجديد فلا . ولو كان له مكان فأنا أرى إغلاق الباب دونه ، إذ لا داعى له . وهذا على العكس مما نوصى به فى ميدان المعاملات فإن ركب الحياة يزحف إلى الأمام أبداً .

وفى أثناء مسيره تجد شئون لابد من بيان حكم الله فيها وفق ما ترك لنا رسوله من نصوص وقواعد . وقد ظهرت الآن فى عالم السياسة الدولية والمحلية وفى عالم الاقتصاد التجارى والصناعى والزراعى وفى عالم التنظيم الإدارى ، وفى أنحاء أخرى كثيرة ، ظهرت أمور لابد أن يقول الإسلام فيها كلمته وهو أقدر دين على النطق بهذه الكلمة .

والذى نرجوه من الأمة أولا : ألا تضيق بوضع ينتهى إليه العلماء وهو مخالف لما ألفت . . فإن الإسلام أول حركة للتحرر العقلى : من الوراثات السيئة . . ثم من المجتهدين . ثانياً : ألا يغتروا بما تقره الحضارة الحديثة والنظم المختلفة من مبادىء ومناهج . وألا يكون هدفهم تقريب الإسلام من هذه المحدثات . فإن الإسلام دين له منابعه وله غاياته . وعمل المجتهدين هو رد الأمور الناشئة إليه وحده ، لا جره إلى الفلسفات الإنسانية المختلفة . .

ونحن قد نشرنا كتابات فى بعض القضايا الخاصة بالمال والحكم ، حاولنا فيها تقديم إصلاحات إسلامية كثيرة على ما لاحظناه من عوج فى أحوال أمتنا . لكن الأمر أعظم من أن يكون جهد فرد يخطىء ويصيب . ولابد من تضافر العلماء لمواجهة المشكلات المعاصرة بأحكام دقيقة .

٦ - الإسلام والمدنية الحديثة :

ذهب بعض خصوم الإسلام إلى أن الإسلام هو سبب تأخر المسلمين فى

العصر الحديث ، لأنه غير صالح للتجاوب مع المدنية والعمران . وهو زعم خاطىء ، لأن الإسلام يمجد العقل ، ويكبر العلماء ، ويدعو إلى التأمل فى ملكوت السماوات والأرض . ثم هو صاحب اليد الطولى على الإنسانية جمعاء ، وحامل لواء المدنية الحديثة .

وهو ـ بمرونته وسعته وسماحته ـ صالح لكل زمان ومكان . فمن الخير تأليف كتاب موجز لإثبات هذه الحقائق الخالدة . أقول : إنه لمما يثير الضحك أن يتهم الإسلام بخصومة للمدنية أو تعويق للحضارة . لقد قطع الشرق الإسلامى من القرون أربعة عشر قرناً ، وقطع الغرب المسيحى من الزمن عشرين قرناً .

ولو أن التأخر كان حليف الشرق طوال هذه القرون ، والتقدم حليف الغرب لقلنا ـ على عجل ـ : إن الإسلام مبعث هذا التخلف الشائن . فلنستنبىء التاريخ : عن الواقع ليقول كلمته . لقد ظل الشرق الإسلامى أحد عشر قرناً وهو فى طليعة العالم ، إن لم تكن أممه أرقى أمم الأرض طراً . وهذه القرون الأحد عشر هى التى كان فيها قريباً من دينه ، مرتبطاً بتعاليمه ، فلما انفك عنها هوى .

أما الغرب . . فقد ظل سبعة عشر قرناً ، وهو يخبط فى عمياء طامسة . لا يلوح فيها بصيص نور . فلما أراد أن ينهض دارت فى رحاه معارك طاحنة بين العلم والدين ، انتهت بانحسار الكنائس ورجالها عن الحياة العلمية والعملية . ومن ثم شرعت « أوروبا » تتحرك ، وتنتعش وتقتحم الآفاق التى كانت محرمة عليها من قبل باسم الله !!

والتاريخ النزيه يذكر أن الدعائم التى قامت عليها نهضة الغرب الحديث هى تراثنا العقلى والأدبى . هى كل ما خلف آباؤنا من ثمرات طيبة فى حقول البحث والنظر . وما يغض من هذه الحقيقة ويخفيها تحت ركام من الجحود إلا أحوالنا العصيبة أمام انحطاطنا وتعصب الغرب علينا ، وجنوحه إلى الأثرة والكذب .

٧ ـ أسباب انتكاس المسلمين ووسائل نهوضهم :

ساد المسلمون العالم فترة من الزمان ، ونشروا فيه أنوار المدنية والعمران . ثم جدت عوامل جديدة داخلية ، وخارجية ، دفعتهم من القمة إلى الحضيض . ولكنهم تنبهوا ـ أخيراً ـ إلى حالتهم . وبدأت يقظة جديدة ، وانتفاضة قوية حديثة ، نرجو أن تعود بهم إلى السمو والارتقاء . ومما يعينهم على هذا إصدار بحث موجز يتناول أسباب التدهور ووسائل النهوض .

أقول : إن الانهيار الشنيع الذى أصاب الأمة الإسلامية من بضعة قرون يعود إلى التفاوت الواسع بين واقع الحياة فيها وبين القيم والنظم التى أتى بها دينها . وقد بدأ هذا التفاوت أول الأمر يسيراً كما ينفرج ضلعا الزاوية عند رأسها . فإن المسافة بين ما يجب وبين ما وقع كانت ضئيلة . على أنه مع بقاء شقة الخلاف ، وامتداد الزمن تتسع المسافة ويطول البعد .

وتكاد تنقطع الصلة بين ما يمليه الدين من واجب ، وما يخطه من مناهج ، وبين ما نكون عليه من تفريط ، واضطراب وشرود . وقد ألمعنا فى بعض كتبنا إلى مظاهر متفرقة لهذا الاختلاف الغريب . ولكن الإنصاف للإسلام يقتضى إفراد هذا الموضوع ببحوث متصلة ، يدرس فيها التاريخ الإسلامى من دولة الخلافة إلى عصرنا هذا ، وتحاكم أحداث هذا التاريخ محاكمة دقيقة إلى القواعد الإسلامية والمثل العليا لهذا الدين كما تقررت فى كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم .

وسنجد عند المقارنة أن سياسة المال والحكم اهتزت اهتزازا عنيفاً جداً ولم تنضبط وفق أحكام الشريعة الغراء . كما سنجد أن العلم الإسلامى نفسه بعد فترة من هذا الاضطراب يتأثر هو الآخر . ولولا ما تأذن به من حفظ القرآن الكريم وحماية السنة المطهرة لاندكت معالم الإسلام وسط

الزلازل التى هاجت فى كيانه من الداخل والخارج . على أنه من صنع الله أيضاً أن الأمة تتجدد ، وتنتفض ، وأنها استعصت على أسباب الزوال . وهى الآن على أعتاب نهضة ترد إليها شبابها إن شاء الله .

٨ - الإسلام بين المادية والروحية :

تجنح بعض المذاهب والأديان إلى المادية الواقعية ، كما يجنح بعضها الآخر إلى الروحانية المثالية . ولكن الإسلام يجمع بين الأجسام والأرواح ، والدنيا والآخرة ، والماديات والمعنويات ، والعقيدة والدولة . فهو بهذا أكمل دين يصلح للإنسانية جمعاء ، ويوائم بين جميع الظروف والبيئات المختلفة . وينبغى أن يعرف المسلمون هذا ليتخذوا من دينهم وسائل للرقى ، والمدنية ، والعمران . ومن الخير أن يؤلف لهم كتاب فى هذا الموضوع [1] .

٩ - المسلمون بين التيارات السياسية الحديثة :

تتنازع العالم الآن قوتان رهيبتان ، تحاول كل منهما أن تجذب بقية الدول إلى صفها ، أو تضمها إلى فلكها . فإذا قامت الحرب أصبحت هذه الدول أولى فرائسها . فمن الخير للمسلمين جميعاً أن يبقوا أمة واحدة معتصمة بحبل الله المتين . وينبغى للدول الإسلامية أن تعرف أسرار السياسة الدولية ، لتتجنب الوقوع بين شقى الرحى . وتأليف كتاب فى هذا الموضوع ، يلقى أضواءً على الصراع الدولى الجبار ، وعلى الموقف الذى ينبغى أن تقفه الدول الإسلامية من هذا الصراع [2] .

---

(١) تراجع كتبنا « كيف نفهم الإسلام » و« الإسلام والأوضاع الاقتصادية » و« الإسلام والمناهج الاشتراكية » و« الإسلام المفترى عليه » .

(٢) تراجع كتبنا : « الإسلام والاستبداد السياسى » و« التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام » و« كفاح دين » و« الاستعمار أحقاد وأطماع » و« من معالم الحق » .

١٠ ـ الإسلام مصدر الحريات :

بعض النظم السياسية تعطى الفرد من الحريات ما يطغى به على مصلحة المجموع ، وبعضها يعطى المجموع ما يطغى به على النشاط الفردى . ولكن الإسلام يعطى الفرد حقه ، والجماعة حقوقها ، وينسق بينهما خير تنسيق . وهو ـ بهذا ـ يكفل جميع أنواع الحريات فى تنظيم دقيق يشمل حرية الملك ، والعقيدة ، والمسكن ، والتعبير . وتأليف كتاب فى هذا الموضوع يسد فراغاً كبيراً فى المكتبة الإسلامية (١) .

١١ ـ أساليب الاستعمار :

الإسلام دين الحرية والعزة والكرامة ، وهو أقوى حافز لإعزاز معتنقيه ، ودفعهم إلى القيادة والتوجيه . وقد عرف الاستعمار قوة الإسلام ، فلجأ إلى وسائل عديدة مادية ومعنوية ، وعسكرية وعلمية لإضعاف العقيدة الدينية فى نفوس المسلمين . فيجب أن يعرف المسلمون أساليب الاستعمار ووسائله ، ليتجنبوا الوقوع بين مخالبه . وتأليف كتاب فى هذا الموضوع يسد هذا الفراغ الكبير(٢) .

١٢ ـ براءة الإسلام من البدع والخرافات :

الإسلام دين الحقائق الخالدة المتفقة مع أحدث نظريات العلوم . ولكن كثيرين من خصومه دسوا فيه كثيراً من الأقاويل ، وابتدعوا فيه كثيراً من البدع ، التى تشوه تعاليمه ، وتطمس أضواءه . وأعانهم فى هذا بعض

---

(١) تراجعه كتبنا : « الإسلام والاستبداد السياسى » و« التعصب والتسامح » و« كفاح دين » و« الاستعمار أحقاد وأطماع » و« فى موكب الدعوة » و« حقوق الإنسان » .

(٢) انظر الهامش السابق .

المنحرفين أو المضللين ، فروجوا لهذه البدع ، والخرافات ، وأضافوا إليها كثيراً من الزيادات . فينبغى وضع كتاب لإظهار هذه البدع التى تضلل الناشئين ، وتعطى خصوم الإسلام حجة للطعن والتشهير[١] .

١٣ - التيارات الداخلية فى الإسلام :

بسط الإسلام نفوذه الروحى على معظم أجزاء العالم المعروف فى القرون الوسطى . وورث حضارات المصريين والإغريق ، والرومان ، والفرس ، والهند . فتسللت بعض المذاهب الفلسفية إلى التعاليم الإسلامية ، وبخاصة الأفلاطونية الحديثة . كما وضعت طائفة من خبثاء اليهود كثيراً من الإسرائيليات ، وألصقتها بالإسلام ، وانخدع بها بعض المسلمين ، وبخاصة قلة من المفسرين .

وقد تجرد جماعة من المنافقين لدس الأحاديث الموضوعة على سنة الرسول صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه . فينبغى وضع كتاب ينقى الإسلام من هذه التيارات الفكرية الدخيلة عليه[٢] .

١٤ - مشكلات اسلامية معاصرة :

عرف المسلمون من أساليب المدنية الحديثة ، وأوضاعها ما لم يعرفه آباؤهم السابقون . وقد حدثت مشكلات عصرية حملتها إلينا هذه المدنية . فينبغى علاجها فى ضوء الإسلام ، بقياس الحديث منها على القديم مثل مشكلات المصارف المالية ، والأسواق المالية « البورصة » التأمين ، الادخار ، « الكونتراتو » إلخ . ومن الخير أن ينبرى جماعة من العلماء لدراسة هذه الموضوعات وإبراز حكم الإسلام فيها .

(١) راجع كتابنا : « ليس من الإسلام » .
(٢) راجع كتابنا : « ليس من الإسلام » و« كيف نفهم الإسلام » .

١٥ ـ مجاراة العربية لعوامل التطور :

يتهم بعض الحاقدين اللغة العربية بأنها لغة جامدة لا تجارى تطور المدنيات الحديثة ، ولا تسايرها ، وهى عاجزة عن استيعاب العلوم الحديثة وما أبرزته من كشوف جبارة عديدة وهو زعم خاطىء . لأن اللغة العربية عاشت زهاء خمسة عشر قرناً ، استوعبت فيها مدنيات مختلفة وورثت حضارات متعددة مثل حضارة المصريين ، والإغريق ، والرومان ، والفرس ، والهند ، وهضمتها جميعاً .

وأضافت إليها حضارة خالدة ، لاتزال آثارها ماثلة للعيان . ثم هى قد استوعبت معارف هذه الحضارة الحديثة ، واتسعت لما وفدت به علينا من مصطلحات . وها هى ذى علوم الطب ، والطبيعة ، والكيمياء تدرس فى جامعة دمشق بالعربية الفصحى . واللغة العربية ـ بما فيها من وسائل الاشتقاق ، والتعريب ، والمرونة ـ كفيلة بأن تجارى اللغات الحديثة فى التطور والارتقاء . وينبغى وضع كتاب يجلو هذه الحقائق الخالدة ، ويعرف المسلمين أن الحملة على العربية هى فى حقيقتها حملة على الإسلام ، وذريعة للقضاء عليه .

١٦ ـ حكمة التشريع الإسلامى :

ينبغى إبراز أهم القيم الإسلامية التى تسمو بالفرد ، كما تسمو بالجماعة ، كما تسمو بالإنسانية جمعاء . ومن الخير تأليف كتاب يظهر الحكمة فى التشريعات الإسلامية للأفراد والجماعات من عبادات ومعاملات ، مع إظهار ما فى الإسلام من يسر ، وسماحة ، واستجابة لتطور المدنيات والعمران .

١٧ ـ بطولات اسلامية :

نهض بالإسلام عند ظهوره رجالات من العباقرة الموهوبين الذين

ضربوا أحسن الأمثال ، فى التضحيات الجسيمة ، وإنكار ذواتهم فى سبيل مبادئهم . وإبراز هذه البطولات كفيل بإثارة العزمات الخامدة وإيقاظ الهمم الغافية ، لحفزها إلى استئناف النهضة الإسلامية ، كى تتبوأ مكانها الجدير بها فى الحياة . ومثل هذا الكتاب يؤدى للمسلمين أجل الخدمات ، وبخاصة للجيل الجديد .

١٨ - الأسرة الإسلامية :

وضع الإسلام للأسرة نظاماً دقيقاً محكما ، وأقام العلاقات فيها على أساس متين . وقد حاول بعض الملحدين أن يشوه محاسنه ، ويطمس معالمه . ثم ظهرت الحقائق العلمية ، والدراسات الاجتماعية ، مؤيدة ما ذهب إليه الإسلام . وما أشد حاجة المكتبة العربية إلى كتاب يشرح هذا النظام ، ويبرز ما فيه من حكمة عالية وأهداف سامية[١] .

١٩ - الإسلام دين السلام :

ذهب بعض المبشرين إلى أن الإسلام قام على العنف ، وانتشر بالسيف ، واعتمد على الإكراه ، وهو زعم خاطىء كل الخطأ . فقد قام الإسلام على الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، ونادى بالسلام ، واشتق اسمه من السلام ، وجعل تحية أهل الإسلام السلام . وطالما نهى عن البغى والعدوان ، وتوعد مرتكبهما بأشد أنواع العقاب .

بل إنه وضع نظاما محكما للسلام بين الدول المختلفة ، لايزال العقل البشرى يحلم بالوصول إليه حتى الآن . ومن الخير تأليف كتاب يبرز هذه القيم المثالية ويجلوها على العالمين[٢] .

---

(١) راجع : « من هنا نعلم » و« ظلام من الغرب » و« كفاح دين » .
(٢) فى هذا الكتاب ، وفيما سردنا من كتب ، بيان شاف فى هذا الموضوع .

٢٠ - البــلاد الإســلامية :

يكاد كثير من الدول والأمم الإسلامية يكون مجهولا لبعض المسلمين ، أو فى حكم المجهول . مع أن الدين الإسلامى ينص على جعل المسلمين إخوة متحدين ، متعاونين فى الماديات والروحانيات .

وهذا يوجب على كل مسلم أن يعرف نبذة عن كل دولة ، أو طائفة إسلامية تتناول موقعها الجغرافى ، وأحوالها الاقتصادية ، ونظمها السياسية ، وموقفها بين التيارات العالمية . على أن يشفع هذا كله بخرائط ورسوم موضحة ، ويتبع بجداول إحصائية لعدد السكان ، والمساحة ، والنهضة التعليمية ، والنظم المالية .. إلخ . وبهذا يسهل جمع المسلمين وتعاونهم فى شتى الأقطار والأمصار .

* * *

مقاومة الهدامين

على الداعية المسلم أن يتذوق الحقيقة المريرة التى يلقاها دينه وتلقاها أمته منذ ابتدأ عهد التفكك والانحلال ، إلى أن تحركنا ببطء تحاول استنقاذ حياتنا وتراثنا ، والنجاء بإيماننا وأخلاقنا .. أجل ، عليه أن يواجه الغارة الشعواء التى شنها خصوم الإسلام عليه ، وأن يستبين الأغراض الهائلة الكامنة فى لفح هذه الغارة وإلحاحها واتساع هجماتها .

فإذا استيقن أنها تنشد استئصال أمته واجتثاث عقيدتها وشريعتها ، وتحويلها إلى قصة تروى ، وخبر كان ، هاجت فى دمه غرائز الحياة ، وأهاجها فى نفوس الهاجعين والغافلين فهبوا مستقلين عن كيانهم . فإما ظفروا بالعيش الكريم لأنفسهم وإسلامهم ، وإلا .. فلأن يقتلوا مكافحين أشرف من أن يلقوا حتفهم ، وتطوى رايتهم وهم مولون مخذولون .

هناك ثلاثة أنواع من الهدم تعمل جنباً إلى جنب منذ وطئت أقدام المستعمرين بلادنا المترامية الأطراف . الهدم الروحي ، والهدم التاريخي ، والهدم العسكري . وغايتها أن تتلاقى على أنقاضنا . وسنشرح ـ بإيجاز ـ بعض مظاهر هذا الهدم ليكون الداعية خبيراً بمقاومته ، موفقاً في لفت الأنظار إلى جراثيمه . فإن إيقاظ المشاعر له أول الأسباب للانتصار عليه . .

* * *

● الهدم الروحي :

يجتهد الاستعمار في صرف المسلمين عن دينهم بكل ما يتاح له من الوسائل ، وفي جعل حركات التحرر الناشطة في بلادهم مبتوتة العلاقة بالدين ، حتى تولد ميتة ، أو تحيا عقيمة لا ثمر لها ولا زهر . وما من نهضة في الأولين والآخرين إلا ولها دعامة معنوية تقوم عليها وسناد روحي تتحرك به .

ولما كان عمل الدين في هذه الحالة ملء القلوب بالضمائر الحية ، وبناء الأخلاق على الفضيلة ، وصبغ الحياة بتقاليد جامعة ، ومعالم واضحة ، ورص الصفوف على إحساس مشترك ودفعها إلى مصير واحد ، فإن الاستعمار استهدف إقصاء الدين عن آفاق البلاد الإسلامية كلها ، وتكوين أجيال غريبة عنه إن لم تكن كارهة له . . بل إن ذكر الإسلام أصبح محظوراً في المناسبات الجادة والشئون الهامة .

وقد يحوم البعض حوله ، ولكنه يوجل من التصريح به . كأن الإسلام مجرم ارتكب ذنباً ثم فر من القضاء الذى حكم بعقوبته ، فهو لا يستطيع الظهور في المجتمعات . وربما تلوح له فرصة الظهور متنكراً تحت اسم مستعار ، فيتحرك قليلا هنا وهناك ، حتى إذا أحس انكشاف أمره استخفى من الأنظار !!

يا عجباً !! لماذا يلقى الإسلام هذا الهوان كله ؟! والجواب عند الاستعمار الذى يجر خلفه ضغائن القرون الأولى ، ويضع نصب عينيه ألا تقوم للإسلام قائمة فى بلاده : فهو حريص على خنقه فى ميدان التربية ، والمعاملات ، والتشريع ، وسائر ألوان الحياة . . إنه يطمئن إلى مجتمع واحد ، المجتمع الذى مات ضميره ، والذى تفسخت أخلاقه . فى هذا المجتمع الذى غاضت منه معانى الفضل . واستغلظت فيه غرائز الشر ، وزحفت فيه ثعابين الأثرة . . يستطيع الاستعمار أن يطمئن إلى يومه وغده . .

فإذا جاء الإسلام ليمسح هذه الأقذار طلب منه ـ على عجل ـ أن يعود إلى وكره ليختفى عن الأعين . إنه اسم لا ينبغى أن يذكر ، وحقيقة لا يجوز أن تعيش . هكذا حكم الاستعمار . حتى قيض الله لنا فكرة « العروبة » عنواناً نستطيع تحته أن ندفع غوائل الموت . وقد هششنا للفكرة ورجونا من ورائها الخير .

وللعروبة المجردة مثل تعكر على الاستعمار مآربه . إن التعليم فى ظل الاحتلال الأجنبى خلق أناساً تحركهم الشهوات وحدها ، أناساً فرغت عواطف اليقين من أفئدتهم فهى هواء . فإذا جاءت إليهم العروبة ، فهل يعرفون أن العفة من خلائقها ؟ وأن تقديس العرض من شمائلها ، وأن المحافظة على الحريم من صفاتها الباطنة والظاهرة .

إن أمثال العرب فى الجاهلية تشهد بما كان لهم من غيرة على نسائهم . فالمثل القائل : « كل ذات صدار خالة » يعنى أن العرب يجعلون فى حكم الخالة كل من تلبس ثياب المرأة ، فما ينظرون إليها إلا نظرة الاحترام والعفة . ذلك أن الخالة بمنزلة الأم ، ويقول الشاعر :

وأغض طرفى إن بدت لى جارتى حتى يوارى جارتى مثواها

ويقول الآخر :

ولا ألقى لذى الودعات سوطى أداعبه ، وريبته أريد . . !!

يعنى أنه لا يلاعب طفلا مع أميه ، ابتغاء إثم بالأم نفسها . . فهل هذه الشوارع الغاصة بمتتبعى العورات وبغاة الدنية شوارع عربية ؟ وهل هم عرب أولئك الذين ترى الواحد منهم يتأبط ذراع متبرجة لعوب ، تسير فى وضع يقول لكل ناظر : هيت لك . . ؟؟ والعرب الأقدمون كانوا أصحاب كرم غريب ، وإيثار رائع ، ونهوض بالحق على عض الزمن ، وشدة الحاجة .

واسمع قول عروة بن الورد :

وإنى امرؤ عافى إنائى شركة وأنت امرؤ عافى إناءك واحد
أتهزأ منى أن سمنت وأن ترى بوجهى شحوبُ الحق والحقّ جاهدُ
أفرق جسمى فى جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء البارد

أرأيت صورة الإنسان النبيل يؤثر غيره بالطعام ، ويستعيض برشحات الماء البارد يصفر بها وجهه ، وهو يأبى تضييع من نزلوا به ، وحسبه أنه فرق جسمه فى جسوم كثيرة . . احتفظ بهذه الصورة ثم سل نفسك : أمدن عربية هذه التى تراها مزدحمة بأصحاب الفضول من المال ، ومع ذلك فقلما تؤوى يتيما ، أو تغذو محروماً ؟؟

وما لنا نبحث عن الشمائل العربية المفقودة فى بيئات مسخها الاستعمار وترك عليها طابع الحيوانية والتقطع ؟ إنك ترى الواحد من أولئك يقول : إنه عربى ، ولغة العرب لا تستقيم على فمه !! ومن تعاجيب الليالى أن أسمع المذيع مثلا يقول : يا أخى المواطن « احنا بنعمل ايه فى هذه الأيام » . وكان يستطيع أن يقول : ماذا نعمل فى هذه الأيام ؟

ولكنه حريص على تخليد لغة الرعاع ، والتنكر للغة الفصحى . وهى اللغة التى ترسل بها الإذاعات من جميع محطات العالم لمستمعيها على اختلاف ألسنتهم ، إذ يستحيل أن يخاطب المذيع قومه - فى أية عاصمة - بلغة غير الفصحى . فهل من مظاهر الوفاء لعروبتنا أن نذيع نحن بلغة الرعاع ؟؟ والواقع أن الإسلام وحده هو الذى يخلد العروبة : لغة ، وأدباً ، وخلقاً .

وأن التنكر لهذا الدين معناه القضاء الحقيقى على العروبة : فى لغتها وأدبها وخلقها ، ولذلك يجب على الدعاة أن يستميتوا فى إبراز هذا الاسم بقدر ما يستميت الاستعمار فى إخفائه ، وأن يذهبوا عنه الوحشة التى صنعها أعداؤه حوله ، حتى يصبح مألوفاً فى الآذان محبباً إلى القلوب . وإظهار هذا الاسم لا يكفى ، فما قيمة شكل لا جوهر له ؟ يجب على الدعاة أن يجمعوا الجماهير على تعاليمه ، وأن ينعشوا أنفسهم بروحه .

الضمير الدينى الخاشى لله ، الرحيم بخلقه . المحتفى بالواجبات ، النفور من الرذائل ، الشجاع فى نصرة الحق ، المستعد للقاء الله ، المتأسى بصاحب الرسالة ، هذا الضمير يجب أن تدعمه ، بل نوجده فى كل طائفة ، وأن نربط به إنجاز كل عمل ، ونجاح كل مشروع ، ومنع كل تفريط ، وصيانة كل حق . فالإسلام قبل كل شيء قلب كبير . قلب موصول بالله ، يبادر لمرضاته ، ويتقيه حيث كان .

وهذا القلب لا يتكون من تلقاء نفسه ، ويستحيل أن يتكون بداهة وسط تيارات الشكوك والتجهيل التى تسلط عليه عمداً ليضطرب ويزيغ . إنه يتكون بأغذية روحية منظمة تقدم له فى برامج التعليم ، وفى عظات المساجد وفى صبغ البيئة بمعان معينة تساعد على احترام الفضيلة وإشاعتها ونحن أحوج ما نكون لإنشاء هذه الضمائر فى الذرارى المحدثة التى عريت عنها ، والطبقات الكثيفة التى مردت على العبث والاستخفاف بجميع القيم .

إننى أستغرب كيف نشترى آلة بأغلى الأسعار ثم نقف أمامها عاملا لا يتقى الله فهى تخرب بين يديه على عجل . يقل إنتاجها لو قدر لها البقاء سليمة . . !!! إننا لو بذلنا شيئاً زهيداً لغرس التدين الحق فى قلب هذا العامل لربحنا الكثير . أفلا يبذل المسئولون هذا الشيء الزهيد ولو على اعتباره نفقات صيانة للآلة التى اشتريت ؟؟

إن من حق الله علينا ومن حق بلادنا علينا أن نربى الصغار والكبار على رعاية هذا الجانب الروحى الجليل . ويوم يتنادون باسم الإيمان لابتداء عمل ما . فسوف يتم على خير الوجوه . إن الضمير الدينى علاقة راشدة بالسماء ونواة مباركة فى الأرض . وما أصدق قول الأستاذ « أحمد الزين » فى وصفه :

هو صوت السماء فى الأر ... ض وروح من اللطيف الخبير
وشعاع تذوب تحت سناه ... خدع العيش من رياء وزور
هو سر يحار فى كنهه اللـ ... ب وتعيا به قوى التفكير
مبلغ العلم أنه روح غيب ... باطن الشخص ظاهر التأثير
كل حى عليه منه رقيب ... حل من قلبه مكان الشعور
حل حيث الأهواء تنزو إلى الإ ... ثم وتهفو إلى مهاوى الشرور
جامحات أعيت على الناس كبحا ... رغم إنذارها بسوء المصير
ثم صاح الضمير فيها نذيراً ... فأصاخت إلى صياح النذير
هو روح من الملائك يسمو ... بسليل الثرى لعالم نور
قد تولت بالأنبياء عصور ... وهو باق على توالى العصور
حافظاً فى الزمان ما خلفوه ... قائماً فى الصدور بالتذكير
حاملا من شرائع الخير كتباً ... قدست من صحائف وسطور
ليس يعفو من الهنات وإن ها ... نت ملح فى اللوم والتعزير

ونحن ننشد هذا الشعر هنا تكريماً للأدب العالى ، وإلا فلا مجال لقول بعد أن نتدبر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أن فى الجسد

مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب » . والاستعمار يدرك أتم الإدراك ، أين يقع زمام الإنسان ؟ ومن يوليه وجهته ؟

ولذلك ركز هدمه الروحي على القلب المؤمن ، العارف بربه ، الراكن إلى غيبه ، كما يُوجِد قوماً إذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، وإذا بلوتهم فى عهد أو أمانة أو عمل أدركت أنك تتعامل مع قطيع دواب لا مع نفر من الناس . والحياة الروحية الصالحة لا مدد لها فى أمتنا إلا من الإسلام ، دين الكثرة التى تذاد عنه بالختل ، والمكر ، والتى تحرم العيش فى ظلاله خشية انفجار غضب الاستعمار ، وإتيانه على الأخضر واليابس .

ولك أن تتساءل : أكذلك الحال فى أوروبا وأمريكا ؟ يقصى الدين جانباً ويسمح للحياة البعيدة عنه أن تمتد وتسود ؟ وهاك الجواب كما كتبه الأستاذ « محمد زكى عبدالقادر » بعد أن عاد من رحلة إلى أمريكا تحت عنوان « سلطة الكنيسة فى أمريكا » قال فيه :

قد يظن الكثيرون أن أمريكا تحررت من سلطات الكنيسة . ولكن هذا الظن ليس صحيحاً ، فإن المنظمات الدينية والكنسية متعددة فى مختلف الولايات . ومن التقاليد التى جرى العرف على الأخذ بها ألا يتولى منصب رئيس الولايات المتحدة أحد من الكاثوليك . وليس فى الدستور والقوانين ما يحرم ذلك فإنها لا تفرق بين أحد وأحد فيما يتعلق بجنسه أو دينه ، ولكن التقليد بلغ من القوة حداً جعله أشبه ما يكون بنص الدستور .

والمنظمات الكاثوليكية أقوى نفوذاً من المنظمات البروتستانتية ، وإن كان أتباع الكنيسة البروتستانتية أوفر عدداً ، وذلك لأن الكاثوليكية أشد عناية بالمظاهر والرسميات ، وأكثر التصاقاً بأتباعها وتأثيراً فى حياتهم من الكنيسة البروتستانتية . ويصعب على أى فرد فى الولايات المتحدة أن ينتقد الكنيسة

الكاثوليكية ، فهى تنتحل لنفسها ما يشبه الحصانة .

وهى تتدخل - وكذلك تفعل الكنيسة البروتستانتية - فى شئون التشريع والتنظيم فى كثير من الأحيان . وقد تدعى لإبداء رأيها - بصفة رسمية - فى بعض التشريعات والقوانين سواء فى الولاية أو الحكومة الاتحادية . وبين المرشحين الظاهرين لمنصب رياسة الجمهورية السناتور كيندى . ويعترف الأمريكيون بقدرته وكفايته . ويرى الكثيرون منهم أنه خير من يلى هذا المنصب ، ولكنهم يرتابون فى إمكانه ترشيح نفسه ، ويرتابون كثيراً فى نجاحه لو أنه رشح نفسه .. وذلك لأنه كاثوليكى .

وربما كانت وجهة النظر الأمريكية فى هذا بعيدة عن الصلة بالدين[1] والمذهب فى ذاته فهم يقولون : إن نجاحه - كرئيس لجمهورية الولايات المتحدة يعنى أنه سيكون تحت سلطان البابا الكاثوليكى فى روما . وهم ينفرون من هذا السلطان على أية صورة من الصور .

ويقولون أن نفوذ البابا على إيطاليا وأسبانيا خاصة واسع إلى حد كبير ، وهو موجود أيضا فى فرنسا ، وإن كان بصورة أقل وضوحاً . والكنائس فى الولايات المتحدة ليست منظمات دينية فقط ، ولكنها تعنى أيضاً بالشئون التعليمية والاجتماعية ، وتتدخل أحياناً فى الشئون السياسية . ويتولاها أشخاص ذوو كفاية وثقافة ، يعرفون أين يقفون وكيف يؤثرون عن طريق الدين فيه الكثير من أساليب الحياة .

ثم إنهم يديرون المدارس والمؤسسات التعليمية وينفذون إلى حياة العائلات . وربما كان ما أتاح لهم هذا النفوذ أن فريقاً كبيراً من المهاجرين الأوائل تركوا بلادهم تحت ضغط الاضطهاد الدينى . ومن ثم بدأوا حياتهم - ثم استمروا فيها - وهم أشد ما يكونون التصاقاً بالدين » .

---

(١) الواقع أن التعصب المذهبى وحده أساس هذا المسلك وما يذكر ليس إلا فعلة لتغطية .

أقول : ويبدو أن ما يباح للأديان كلها يحظر على الإسلام وحده ، فلا يجوز أن يرتفع له علم ، ولا أن يكون لأهله نفوذ ، ولا لشرائعه هيمنة !!!

* * *

وخطط الاستعمار فى الكيد للإسلام وصرف الناس عنه ، وقطع الأواصر بين ضمائرهم وبواعثه ، وبين أعمالهم واسمه ، كثيرة محكمة . لقد استعان ـ بعد ما أخفى دولته الكبيرة ـ بالوطنيات كى يكون الارتباط بها أساس الأعمال الخاصة والعامة .

والارتباط بهذه الوطنيات ، مهما سما وقوى ، لا يصد نزعة شيوعية ولا فلسفة وجودية ولا تفكيراً مادياً ولا مذهباً منحرفا . فإن هذه الوطنيات ـ بمدلولها الوثنى المستجلب من الخارج ـ لا تعنى إلا تقديس قطعة من الأرض والمغالاة بأهلها . ومن الممكن توفير هذا المدلول مع البعد عن الله ، والذهول عن شرائعه ! قد تقول : فهناك مواريث التاريخ واللغة وسائر التقاليد المبثوثة فى حياة الأفراد والأسر ، وهذه لها أثرها العميق فى استبقاء الناحية المعنوية وضيئة .

والجواب : أن الاستعمار احتاط للأمر حتى تندثر هذه النواحى كلها ، فلا يبقى هناك ما وجه للإسلام أو يعلق القلوب به . . إنه هجم على اللغة العربية بلغاته التى يتكلم بها ويعتز ، فجعل اللغة الدخيلة أعلى منزلة من الأصيلة ، وجعل اجتياز الامتحانات بالتفوق فيها ضرورة ، وجعل الجودة فيها معياراً للترجيح المادى والأدبى فى كل مجال . وبذلك تعرضت اللغة العربية للاضمحلال والهوان ، وسقط بذلك جزء من الكيان الروحى للأمة .

ثم جاء إلى التاريخ فأهال التراب على الحياة الإسلامية الماضية وشرع يشحن أذهان التلامذة بأحداث التاريخ الأوروبي والتاريخ المحلى للقطر الذى انفصل عن شجرة العروبة والإسلام . واكتفى بسرد نبذ طفيفة عن التاريخ الإسلامى الرحب بعد ما صيغت فى أسلوب يجعل تدريسها متاحا لأى معلم ، ولو كان من اليهود ، لأنها ميتة لا روح فيها ، مشوهة لا تخدم فكرة ، ولا تثير خيراً .

ثم تتبع ما قد يوحى بالإسلام ، وقص أجنحته وفض مجامعه ، لكنه يخشى أن يقع شىء ما يذكر الغافلين ، ويحيى الهامدين . خصوصاً بعد عودة اليقظة إلى العروبة الغافية . فماذا يصنع ؟ رأى أن يكاثر العرب فى بلادهم بفئات أخرى من أهل الأرض ، إن لم يكف بنو جنسه لهذه المكاثرة .

جاء مثلا إلى « عدن » وفيها من سكانها الأصلاء نحو سبعين ألف عربى . فاستقدم من « الهندوك » نحو ستين ألفاً إلى الآن . وهو ماض فى سياسته ليصحو أبناء البلد فيروا أنفسهم قلة فيه . وبذلك ينخفض ميزانهم إلى الأبد . وهذه السياسة تجرب الآن فى « البحرين » وفى « الكويت » . وقد جربت بنجاح فى « سنغافورة » التى كانت كثرتها من المسلمين ، فأصبحت الآن من الصينيين والهنود وغيرهم .

والغريب أن المسلمين فى الملايو كانوا لا ينقصون عن ٩٥٪ فأمسوا - فى ظل الاحتلال الانجليزى - لا يزيدون الآن عن ٦٠٪ . ونحن نعلم أن « فرنسا » وطنت أكثر من مليون فرنسى ويهودى فى الجزائر ، كذلك تصنع أغلب الدول الاستعمارية فى الأقطار التى نكبت بها .

والغرض ؟ أن تتحول البقاع الحساسة فى البلاد الإسلامية ـ بعد هذه الهجرات ـ إلى إسرائيل أخرى . . ينحسم منها عرق الإسلام انحساماً لا يؤذن بعودة . وقبل ذلك ؟ إحداث بلبلة فكرية وروحية شاملة بحيث تحتبس أصوات المسلمين فى حلوقهم فلا يجرؤ أحد على النداء بوحدة عاطفية ، ولا خلقية . وقد حاول الانجليز إنجاح هذه التجربة فى العراق من أربعين سنة . فاستقدموا جيشاً من الموظفين الهنود ، وهيئوا مستعمرات لإقامة الألوف من الأسر الهندوسية . وضنوا بأرض العراق على أهله وأخذت مشروعاتهم تظهر على شواطىء دجلة والفرات . .

ولولا أن الشعب العراقى انتفض فى ثورة جامحة قضت على المشروع وواضعيه لكان الآن العراقيون قلة أو مساوين فى العدد للمهاجرين الذين نقلتهم سلطات الاحتلال ، وفى التنديد بهذه المحاولة الآثمة يقول « الرصافى » من قصيدة له :

لنا ملك وليس له رعايا ومملكة وليس لها جنود !

أتغدو الهند خيراً من بلادى وخيراً من بنى قومى الهنود ؟
أما والله لو كنا قروداً لما رضيت بعيشتنا القرود ؟

المحور الذى تدور عليه سياسة الاستعمار فصل الأمة عن قواها الروحية وإبعادها عن منابع الإيمان وتوجيهات اليقين ، والاجتهاد فى خلق ناس قلوبهم هواء ، وأفئدتهم خلاء ، لا يجمعهم رباط ، ولا توحدهم غاية . وأدنى الوسائل إلى ذلك تفتيت الأمة ، وتكثير أهوائها . فإن لم توجد فيها قلة يمكن أن تعتبر « كمسمار جحا » وتعجز رب الدار عن حرية التصرف فيها ، وجب استجلاب الغرباء

من كل ناحية . ليطالبوا بعقيدة غير العقيدة ، ومجتمع غير المجتمع وتاريخ غير التاريخ ، ومصلحة غير المصلحة .

وهكذا يكره المسلمون على ترك دينهم ، ويضطرون إلى صرف الفكرة عنه ، إذا نادوا باستقلال !! والاستعمار هو الكاسب على أية حال .. من المستحيل أن ينهض المسلمون ، بعيداً عن قواعد دينهم ، أو أن ينهض بناؤهم الخلقى والثقافى والاجتماعى مع التجهم لكتاب الله وسنة رسوله .

إن الاستعمار أفهم بعض المغفلين أن من المستطاع فصل الدين عن كل شيء فى الحياة العامة والخاصة . لينطلق كل شيء متحرراً من الدين ، أى من الإسلام وحده . وليبقى الدين ـ بعد أن انفصل عن كل شيء ـ فى خبر « كان » وذكريات مضت ، وخرافات انقضت . . . !!! ونحن نرى ضرورة « مد الاعتبار » إلى هذا الدين الذى أهانه الغزاة وجردوه من كل فضل . ونسبوا إليه كل عيب ، وأطلقوا المسعورين ينبحون قوافله كلما بدت لها حركة .

لماذا يطلب منا ـ نحن المسلمين ـ أن تحيا أرواحنا بعيدة عن دفء الإيمان الذى انتهينا إليه ؟ إن الذين يطفئون شموعنا سيبقون معنا فى ظلام لأنه ليس لديهم نور . أما الزعم بأن الإسلام ، لا يصلح للعصر ، فهو زعم سخيف متتن . صحيح أنه لا يصلح للحياة مع الاستعمار ، ولا يقبل ألبتة أن يجاوره فى دار . أما صلاحيته للحياة المطلقة المشرقة فهو ينبوع صفوها ونورها . ولا بأس أن ننقل هنا كلمات حسنة للأستاذ « محيى الدين نصار » من مجلة « العلوم والسياسة » لها بموضوعنا كبير اتصال :

● **الديـــــن :**

اتفق علماء المقابلة بين الأديان على تأصل العقيدة الدينية فى طبائع الإنسان من أقدم أزمنة التاريخ . وترجع أهمية الدين - من حيث هو للوحدة - إلى تأثيره فى تكوين الأمم وتمييزه بعضا عن بعض فهو يولد نوعاً من الوحدة فى شعور الأفراد الذين ينتمون إليه . ويثير فى نفوسهم بعض العواطف والنزعات التى تؤثر فى أعمالهم تأثيراً شديداً .

فالدين من هذه الوجهة أهم الروابط الاجتماعية التى تربط الأفراد بعضهم ببعض وتؤثر بذلك فى سير السياسة والتاريخ . ويكفى للدلالة على أن مكانة الدين مازالت قائمة فى القرن العشرين ، نشأة دولتى « إسرائيل » و« باكستان » . الأولى على أساس اشتراك اليهود فى الديانة اليهودية واللغة العبرية والآمال المشتركة . . إلخ . والثانية على أساس الإسلام والحضارة الإسلامية . . إلخ . والإسلام هو الدين الذى يوحد العرب ويجمع شملهم لأنه دين الكثرة منهم .

والإسلام دين عقلى . . وهو قانون للفرد والمجتمع والعلاقات المحلية والدولية على السواء . وهو دين ديمقراطى ، دين المساواة الكاملة بين البشر باعتبارهم من خلق الله ، والإسلام فى أساسه جملة من المعتقدات التى تدور حول مبدأ التوحيد . وهو دين مرن . ومتطور ، ولا يتعارض مع المدنية والحضارة . بل إنه نفسه خلق للعرب مدنية وحضارة ، وهو كما قالت نجلاء عزالدين : « ليس قوة تعمل على الوحدة باعتباره ديناً فحسب ، بل باعتباره منهجاً منفصلا للحياة الكاملة أيضاً » .

ولقد عقد البحاثة الأمريكى « هوكنج » أستاذ الفلسفة بجامعة هارفارد ، فصلا مستفيضا عن « مصير الثقافة الإسلامية » فى كتابه « روح السياسة العالمية » قال فيه : « إن سبيل تقدم الدول الإسلامية ليس فى اتخاذ الأساليب المفترضة التى تدعى أن الدين ليس له أن يقول شيئاً عن حياة الفرد اليومية أو يتحدث عن القانون والنظم السياسية ، وإنما يجب أن

يجد المرء فى الدين مصدراً للنمو والتقدم » .

قال : « وأحياناً يتساءل البعض عما إذا كان نظام الإسلام يستطيع توليد أفكار جديدة ، وإصدار أحكام مستقلة تتفق وما تتطلبه الحياة العصرية » ؟؟ والجواب على هذه المسألة هو أن فى نظام الإسلام كل استعداد داخلى للنمو ، وأما من حيث قابليته للتطور فهو يفضل كثيراً من النظم والشرائع المماثلة .

والصعوبة لا تنشأ من انعدام وسائل النمو والنهضة فى الشرع الإسلامى ، وإنما فى انعدام الميل إلى استخدامه . . . هكذا قال البحاثة الحصيف !! ولست أريد أن أقف لتعليل هذا العزوف ، وحسبى أن أذكر قوله : « . . . وإنى أشعر أننى على حق حين أقرر أن الشريعة الإسلامية تحتوى بوفرة على جميع المبادىء اللازمة للنهوض . . » .

ذلك ، وفى الإسلام قال « برناردشو » : « لا يمضى مائة عام حتى تكون أوروبا ـ ولاسيما انجلترا ـ قد أيقنت بملاءمة الإسلام للحضارة الصحيحة » . والإسلام ، كما قال « فاليو دوردسن » : « دين إنسانى طبيعى اقتصادى أدبى ، ولا أكاد أذكر شيئاً من قوانيننا الوضعية إلا وجدته مشروعاً فيه » .

والإسلام ـ كما يقول الأستاذ « العقاد » ـ يمكن تلخيصه فى كلمة واحدة هى : « الحق » وهو بذلك يكون الدين الحق . . إنه دين شامل ـ وشموله هذا ـ هو الذى حقق له ما لم يتحقق لعقيدة سواء من تحويل الأمم العريقة إلى الإيمان به عن طواعية واختيار . وبالنسبة للحريات نجد أن ثورات العالم المدنية والدينية لم تعلن حقوقاً عامة للإنسان قبل ثورة الإسلام فى القرن السادس للميلاد .

وعند الأستاذ « جب » أن الإسلام ليس مجرد نظام من العقائد

والعبادات . إنه أعظم من ذلك كثيراً ، إنه مدنية كاملة . ولو بحثنا عن لفظ مقابل له لقلنا : العالم المسيحى ولم تقل المسيحية . وعناصر الإسلام الثلاثة التى لا انفصال لها فى سياسته وجماعته هى : المساواة ، والمسئولية الفردية ، وقيام الحكم على الشورى وعلى دستور معلوم من الحدود والتبعات . ولا مصدر للسلطة العامة فى الإسلام غير الأمة . ولا مرجع للمسئولية العامة غير الأمة ، فهى التى تدين حكامها وتبت فى مصائرهم .

والإسلام ، كما قال الدكتور « جوستاف لوبون » ـ محذرا من تخرصات المفرقين ـ : « إنه يوفق كثيرا من عظماء المؤلفين المشهورين عندنا إلى فهمه . ولذلك يجب علينا أن نتروى قبل أن نجارى أولئك الذين لم يقدروا الإسلام حق قدره ، وأن نحاول أن نتبين أهميته بالنسبة للوحدة العربية » .

لقد اشترك الإسلام ـ بل انفرد ـ كقوة خالقة فى تكوين الأمة العربية ، وكانت أول مساهمة له فى تأميم الحياة العربية فى إطار من الإخاء داخل المجتمع الإسلامى . وترجع حركة التعريب الواسعة بين شتى الشعوب إلى انتشار الإسلام . وعند « محمد إقبال » أن الإسلام بالنسبة للظروف التى ظهر فيها كانت هبته العظيمة للعرب تتمثل فى خلق مجتمع وإنشاء دولة .

والعلاقة بين العرب والإسلام علاقة فريدة . . فالإسلام دين عربى . . إذ نزل القرآن الكريم بالعربية . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم رجلا عربيا من قريش . وتنظر القومية العربية إلى الإسلام كإرث قومى مشترك على الأقل بين كل أبنائها .

قال : ولا يوجد تعارض ألبتة بين القومية العربية والإسلام ، فالإسلام دين العرب وأساس وحدتهم . بل إنه ـ باسمه ـ فتحت البلاد الأخرى ، وانتشرت اللغة العربية . والقومية العربية فى حاجة إلى دين الإسلام لكى تكشف عن أصلها ، ومصادر قوتها .

والخلاصة أنه لابد أن يرجع الإسلام والقرآن في خلق الأمة العربية والدول العربية ، وقد حمل الإسلام العرب شوطاً تجاه التقدم نحو وعى عربي . وفي هذا يقول الدكتور « أديب منصور » : « بالإسلام تكونت ذات عربية معروفة في التاريخ ، هذه الذات الفذة التي كونها الإسلام فتحت الفتوح ومصرت الأمصار وحكمت الأمم بضعة قرون » .

وفي هذا تقول الدكتورة « نجلاء عزالدين » : « والإسلام يوحد العرب عاطفياً ويربطهم بوحدة المثل العليا ، وقد كان الإسلام ومازال في قلوب الكثيرين من العرب إلى اليوم يقوم مقام القومية » . ويعترض البعض على اعتبار الإسلام من عوامل الوحدة بين العرب نظراً لوجود أقليات غير إسلامية ساهمت بنصيب كبير في إحياء القومية العربية ، وبعثها ، وفي نشر حضارة العرب في أوروبا .

ويهمنا من هذه الأقليات العربية المسيحيين ، وهؤلاء يقف منهم الإسلام موقفه من الذميين عموماً يرعاهم ولا يفرق بينهم وبين المسلمين في الحقوق أو الواجبات ، بل إن المسيحيين الشرقيين نالوا من الحرية والعدالة في ظل الإسلام أكثر مما نالوا في ظل المسيحية الغربية .

أما ما حدث بين المسلمين والمسيحيين من حروب صليبية فإن ذلك لم يكن على أساس ديني خالص ، بل اكتنفته مطامع أوروبية سيئة . وإنما حدث الغزو الصليبي بدافع الاستعمار ، ولم يكن ذلك دفاعاً عن الأرض المقدسة في « فلسطين » كما يقولون ، بل كان دفاعا عن المصالح الاستعمارية للغزاة الفاتحين » .

* * *

● الهدم التاريخي :

وعلى الداعية المسلم أن يعرف عظمة النعمة التي أفاءها الإسلام على

العالم أجمع عندما أشرق نوره واكتمل ظهوره . إن الأغلال التى فكها عن العقول ، والآصار التى وضعها عن الكواهل ، والآفاق التى افتتحها لنشدان الكمال ، والقوى التى حركها لإحياء الحضارات ، إن هذه كلها بعض آثار الإسلام فى الأرض .

ولولا أن هذا الدين نجح فى تبليغ رسالته لعادت الإنسانية إلى الوراء متقهقرة ما تقف حتى تبلغ العصر الحجرى . . ذلك أن الفساد كان قد عم البر والبحر . فالليل المضروب على العبيد فى الشرق والغرب لا يؤذن بفجر . والجبابرة الذين سخروا الدين لمآربهم لا يجرؤ على اعتراضهم أحد . والمصايد المطبقة على الأفكار والأرواح لا يخرج من سجنها بائس . .

لولا هذا الإسلام لظلت أوروبا على نتنها المادى والأدبى ، تتعبد بالنجاسة ، وتتقرب إلى الله باحتقار العقل وذبح المفكرين . ولقد ظل الأوروبيون يمقتون الإسلام أقبح المقت ، ويؤذون الله ورسوله بأشد الكلم ، وظل الإسلام يقاوم تعصبهم على مر القرون ، حتى أفلح آخر الأمر فأنفذ أشعته إلى العيون الكارهة لها . وبدأ عصر النهضة فى أوروبا ، نعم بدأ عصر النهضة ، وتحركت الأحجار بعد بضعة عشر قرناً من مواتها فى شمال أوروبا وجنوبها وشرقها وغربها .

وكان الفضل لنا نحن ، لأبائنا الكبار ، لأساتذة الدنيا فى أعصار لم تعرف الدنيا غيرهم ، يومض بشعاع ، ويتألق بنور . . وكان ينبغى أن يعرف الأوروبيون لنا هذه المنة ، وينسبوها للعرب وللمسلمين أصحابها الأصلاء ، ولكن الجحود غلبهم ، والتعصب استبد بهم ، فإذا النهضة التى اشتعلت فى غرب أوروبا وسميت بعصر الإحياء ، تنسب إلى جهود علماء القسطنطينية[1] وهجرتهم أمام الفتح التركى . وهكذا نال علماء

(١) فى كتابنا « كفاح دين » بعض الشواهد الناطقة بأن العرب وحدهم كانوا السبب الأول والأخير فى عصر الاحياء مهما أنكرت الكنيسة .

القسطنطينية وما حولها فخراً لم يحلموا به ولم يفكروا فيه يوماً . . !!!

واستمرت سياسة(١) الجحود والكذب فى مجراها المرسوم ، فإذا هى لا تجحد الفضل فحسب بل ترمى العقل الإسلامى بكل نقيصة وتتهمه بكل وصمة ، وتلح فى وصف العرب والمسلمين بأنهم ما كانوا يوماً ما حملة علم ، ولا خدمة فكر . !!! ويمضى التعصب الخسيس فى طريقه ، ليحيك مؤامرة بين المبشرين والمستشرقين تستهدف خلق جيل من المسلمين المهزومين يفهم أن آباءه لم يحسنوا لحظة ، لا إلى أنفسهم ولا إلى الناس .

وأن الإسلام كان ديناً همه التدمير لا البناء ، والجمود لا التجديد . وأنه إذا كان هنالك فى تراثه ما يشير إلى ألمعية وروعة فهو مسروق أو منقول عن الإغريق وغيرهم . ولولا نفر من المنصفين استحى من فعال قومه لطمست الحقيقة ، وذهب فضلنا مع الريح . ولكن ما يصنع هذا النفر مع الكثرة التى تريد إقناع نفسها وإقناعنا معها بأننا لم نكن يوما ما شيئا مذكوراً ، ولن نكون ـ وكذلك يأملون ـ ؟؟؟

والدكتور « فيليب خورى حتى » يروى فى كتابه « تاريخ العرب » هذه النغمة التى يتواصى المستشرقون بإذاعتها وإشاعتها . فهو يؤكد فى أكثر من موضع أن المسلمين لم تكن لهم حضارة خاصة ، ولا ينبغى أن يذكروا بتراث من نسج أفكارهم وعمل مواهبهم . إنهم عالة على الأمم التى غلبوها ، وجسر مؤقت عبرت عليه مدنيات الأقدمين واسمع إليه يقول عن مظاهر الحياة العقلية فى عهد الأمويين : « لم يحمل الغزاة من الصحراء معهم إلى البلاد المفتوحة تراثاً ثقافيا ولا تقاليد علمية ، ولقد جلسوا فى كل من الشام ومصر والعراق وفارس مجلس التلاميذ عند أقدام الشعوب التى أخضعوها ، ولله ما كان أنهمهم من تلاميذ فى طلب العلم . . » .

وهو قبل ذلك يتحدث عما يسمى بـ « الحضارة العربية » !! فيزعم أن العرب لم يستولوا فقط على مساحات شاسعة من الأرض حين أتموا فتح

(١) نفس المصدر .

مصر وفارس وغيرهما ، بل أصبحت فى حوزتهم أقدم مراكز الحضارة فى العالم كله ، ووضعوا أيديهم على ما احتوته هذه الحضارات من تقاليد عريقة ترجع إلى اليونان والرومان والفراعنة وبابل وآشور .. إلخ .

ثم يقول : « لم يكن لدى العرب الأصليين أى شيء يعلمونه للآخرين ، وكان أمامهم كل شيء ليتعلموه ، ولله ما كان أشدهم فهما ! إن أولئك العرب المسلمين بما فطروا عليه من رغبة شديدة فى العلم وبما انطوت عليه جوانحهم من قوى كامنة لم تثر بتاتاً من قبل ، قد بدأوا الآن بفضل تعاونهم مع رعاياهم وبفضل مساعدة أولئك لهم يهضمون ويكيفون وينبشون تراثهم العقلى والفنى .

ثم يقول : وعلى ذلك فما تسميه بـ « الحضارة العربية » لم تكن عربية لا من حيث أصلها ومقوماتها الأساسية ولا من حيث مظاهرها الجنسية الهامة ، وإن الإضافة العربية الخالصة فيها ربما كانت فى الميادين اللغوية ، وإلى حد ما فى الميادين الدينية ، وطوال عصور الخلافة كان أهل الشام وفارس ومصر وغيرها ، مسلمين كانوا أم مسيحيين أم يهودا ، هم حملة شعلة الثقافة والعلم كما كان شأن اليونان المنهزمين فى علاقاتهم مع الرومان المنتصرين تماما » .

ويمضى هذا المستشرق فى شططه الغريب ، وكأنما هو يؤدى وظيفة مرسومة لا بحثا علميا ، فيتحدث عن أيام العباسيين قائلا : « إن الذى جعلها زاهية فى تاريخ العالم أجمع هو تلك اليقظة الفكرية الهائلة التى شاهدها تاريخ الإسلام ، والتى تعتبر أهم فترات تاريخ الفكر والثقافة فى العلم .. » .

قال : « ويرجع السبب فى هذه اليقظة - إلى حد كبير - إلى التأثير الأجنبى ، ذلك التأثير الذى يقوم فى بعض أجزائه على عناصر هندية وفارسية وسورية ، ولكنه فى حملته يعتمد على الإغريق ، وكانت الترجمة

محور هذا النشاط . قال : « وإن المسلم العربي - بما حمل معه من الصحراء من إحساس حاد ، وشغف عقلي ، ونهم للعلم ، وقوى كامنة - كما درسنا سابقا - سرعان ما أصبح الوارث المتفقع من هذه الشعوب . وهي شعوب أكثر وأقدم ثقافة من الذين غزوها ، وإن كان هؤلاء الغزاة قد بدأوا من عندهم بجزء قليل من العلم والفلسفة ، والأدب . . » . جزء قليل !! إن هذا اعتراف ، ما كان له من داع !! ، وليست فيه دلالة على إنصاف .

ومع ذلك فلنقبله من الدكتور « فيليب حتى » ثم لنسمع إلى ما أردفه به من عبارات . قال: « لم تمض عشرات من السنين حتى اهتضم علماء العرب ما أنفق اليونان قرونا في توضيحه . على أننا يجب أن نذكر أن الإسلام في أخذه بمظاهر الثقافتين اليونانية والفارسية فقد طابعه الأصلي الذي كان يشف عن روح الصحراء ويحمل طابع القومية العربية » .

* * *

ومن السهل أن نوجز مآرب الكاتب في هذه الخلاصات :

١ - لم يحمل العرب معهم حضارة يعلمونها للناس عندما خرجوا من جزيرتهم ينشرون الإسلام .

٢ - إذا كانت هناك نهضة اقترنت بانتشار الإسلام فهي وليدة الازدواج الذي تم بين خصائص الجنس العربي ومواريث الأمم المغلوبة على أمرها .

٣ - أن الشعوب المتخلفة عن الانهيار الحربي للرومان والفرس كانت أرقى من العرب الفاتحين ، وأرفع مستوى من المسلمين المنتصرين .

ولذلك فقد قامت بوظيفة الأستاذ لمن قهرها ، وقام العرب بدور التلميذ . ويؤسفنا أن نذكر نحن بإيجاز : أن هذه النتائج المستخلصة من كتابات ذلك المستشرق وكتابات أمثاله الحاقدين على الإسلام ، لا أساس لها من الصحة ولا سناد لها من العلم ولا أثارة فيها لوفاء . بل إنها لون من الهدم المتعمد لتاريخ أمة أسدت إلى العالم أعظم الفضل ، وطوقت عنقه بصنيع يجب أن يحمد لا أن يغمط .

١ ـ فأما أن العرب لم يحملوا معهم حضارة تعلم الناس ، فهذا من أبين الغلط ، فإن القرآن الذى صنع العرب صناعة جديدة ، وكون منهم خير أمة أخرجت للناس ، تضمن من بواعث الازدهار الفكرى والنفسى ، وأصول الحقوق الخاصة والعامة ، ما جعل العالم ينتقل به من طور إلى طور . إن هذا القرآن ليس كتابا من تلك الكتب التى تحمل نعت القداسة ، فإذا أجلت النظر فى صحائفها طويتها على عجل احتراما لعقلك وخلقك ، كلا إنه كتاب يستثير أقصى ما فى العقل الإنسانى من طاقة ، ويهز آخر ما فى الضمير الإنسانى من شعور .

وهو يخلق جو البحث والتفكير خلقا ويدفع بقوة إلى النظر والتدبر . ثم إنه تضمن من الشرائع الاجتماعية ، والتوجيهات الإنسانية ، ما لم يكن للدنيا عهد به . والرسول العربى الخاتم لجميع الأنبياء كان بالنسبة إلى العرب كالغيث الهاطل على أرض موات لم تلبث به إلا قليلا حتى تحولت إلى واد ممرع ، حافل بصنوف الثمر .

وعندما فصل العرب عن حدودهم ، وساحوا فى أرض الله يبلغون رسالته ، كانوا يحملون مبادىء أرقى ألف مرة من المبادىء التى حملتها ثورات العالم الحديث . فالزعم بأنهم لم يحملوا للعالم حضارة ، ولا تقاليد علمية ، ولا توجيهاً ثقافياً إنما هو زعم فارغ .

ربما صح أنهم لم يحملوا للعالم طرازاً جديداً فى فن البناء ، أو الغناء ، أو فن البحث الملتوى عن حقيقة ما سبق أن قال الإسلام فيها كلمته الحاسمة . فهل هذا يعيب الإسلام ، ويصم أمته بأنها لم تحمل للناس حضارة . . ؟؟ هل شعل الحق والعدل والبر التى نقلها العرب للعالمين لا تسمى حضارة ، ولا تستحق أن تذكر بأنها شىء قدمه المسلمون للناس ؟؟

٢ ـ يزعم الأستاذ « فيليب حتى » أن خصائص العرب ـ لا مبادىء

الإسلام ـ هى التى كونت ما يسمى نهضة إسلامية .

وتقدمة لهذا الزعم ، وحتى يروج له بين الأغرار ، استعرض تاريخ العرب فى الجاهلية ثم اكتشف فى استعراضه أن هذه الجزيرة كانت مشحونة بالرجال وأنها طالما ضاقت بأهلها ، واضطرتهم إلى الهجرة منها ، وأن انطلاقة الإسلام العظيمة ، ليست إلا تكراراً لهجرات سبقت ، نزح فيها العرب ـ لظروف اقتصادية ـ إلى الأقطار المجاورة . . !!!

ومعنى هذا أن الفتح الإسلامى ، هو هجرة عربية بحتة ، تحركت فيه مواهب جنس ، وخصائص أمة بقيادة زعيم قومى هو « محمد » صلى الله عليه وسلم وخلفاء ناشطون ، هم حكام الإسلام . وهذا الكلام من أسخف ما قرأت فى حياتى ، ومن أتفه ما يذكر فى ميادين البحث العلمى . تصور رجلا يقول لك : أتحسب أن النهار بدأ صباح اليوم ؟ لقد طلع نهار آخر فى منتصف ليل أمس ، وإن كان الناس لا يشعرون !!!!

الامتداد الإسلامى الطويل العريض الذى غمر الكون بنهار من المعرفة الساطعة لم تعرف الحياة فى غابرها وحاضرها شروقاً مثله . هذا الامتداد ، نوع من الهجرة العربية ، سبق لهذا الجنس أن قام بمثيل لها ، وإن كان الناس لا يشعرون . . . !!! أما القرآن وهدير آياته الذى حطم الخرافات .

أما الرسول العملاق الذى أحيا بالوحى أمة من العدم . وشق بها ما اكتنف الأجيال من ظلم . فهذا أو ذاك شىء لا ينبغى أن يذكر . إن العرب قبل الإسلام ما كانوا شيئاً . ومن غير الإسلام ما كانوا شيئاً . ولو حدث أنهم انطلقوا إلى الناس مجردين من هذا الدين ما كانوا للقائهم بشعوب الأرض أدنى أثر .

فإن إجتماع الأصفار لا يكون عدداً صحيحاً ولا مكسوراً . . والواقع

ـ كما قلنا ـ : إن الإسلام وحده ، هو الذى علم العرب من جهل ، ونقلهم من الظلام إلى النور ، وزودهم بقدرة روحية وفكرية جعلت انقضاضهم على الأقطار الهامدة كانقضاض الشهب على الهشيم اليابس .

والواقع ـ كما قلنا ـ : إن الإسلام بأصوله السماوية الراشدة ـ هو الذى قام بأوسع نقلة فى مدارج الرقى البشرى عندما حول العرب الأميين إلى رجال فكر ، وأئمة هدى . وعندما جعلهم يتصلون بالعالم اتصال المعلم الواعى بالتلامذة الهمل . وعندما فتق أذهانهم وأمكنهم من تناول التراث الفكرى للعالم تناول الناقد البصير يمحو منه ويثبت ، ويصوب منه ويخطىء .

أجل . . لقد نظر العرب فى كتب الأقدمين نظرة الأستاذ إلى كراسات الطلاب التى تتضمن من الحقائق ما يقره ، ومن الجهالات ما ينكره . . وكانت هذه المكانة العقلية قد أضحت لهم بفضل الإسلام وحده ، لا بفضل شىء آخر مدعى أو موهوم . وإذا كانت هناك آثار للحضارات القديمة ، أو لأفكار الإغريق ، والفرس فى التراث الإسلامى ، فهى آثار تشين معالم الوحى ، وتجب أن تماز لتنحى لا ليفخر بها . .

٣ ـ ونجىء إلى ثالثة الأثافى فى مزاعم الأستاذ « فيليب حتى » وهو أن الشعوب الشرقية والغربية حول المسلمين كانت أرفع منهم قدراً ، وأرسخ قدماً وأعلى مستوى !!!

وأنها ـ بمواريثها القديمة ـ أرجح كفة من العرب الفاتحين . . والحقيقة أن الشعوب الأوروبية والأفريقية والآسيوية كانت إلى ثلاثة قرون تقريباً أنزل رتبة من الأمة الإسلامية فى كل شأن مادى وأدبى . وأنها كانت فريسة لجملة من جراثيم الجهل والتعصب والجمود ، تزرى بقدرها أشد الزراية . ولا ندرى كيف أن المسلمين الفاتحين تتلمذوا على شعوب جاءوا إليها ليفكوا عنها أغلال التقليد ، وغشاوات العمى ؟

لقد كانت روما ، وبيزنطة ، والقاهرة ، ودمشق ، والمدائن ، وسائر العواصم . التى طرق الإسلام أبوابها تعيش فى سجن من الآراء الدينية الضيقة ، بعضها وثنى ، والآخر قريب منه ، فكيف يظن أن أهلها كانوا أفضل من المسلمين يومئذ ؟؟ نعم إن العرب ترجموا كتب الأولين من يونان ، وفرس ، لا ننكر ذلك ، وطلبوها من مظانها البعيدة . .

بيد أن من الإنصاف أن نتساءل : ماذا كانت أحوال البلاد التى استقدمت منها هذه الكتب ؟ لقد عبرت دهراً ، وهى لا تعى منها شيئاً . ومضت بعد ذلك أعصار عليها وهى لا تعلم عنها شيئاً . لقد كانت فى نوم عميق . فهل النهم العلمى الذى خلقه الإسلام فى نفوس العرب وأغراهم بالاطلاع على كل شىء سواء احتاجوا إليه أم استغنوا عنه ، هل هذا النهم البالغ ، وتلك الحرية الغريبة يبعثان الفكر النزيه على اتهام العرب بأنهم تسولوا العلم من أمم كانت أذكى منهم وأقدر . .؟

فأين كان ذكاؤها من قبل ومن بعد ، وهى لم تذق طعم المعرفة إلا بعد ما تتلمذت علينا ؟ إن الأحقاد مهما كلحت لا تستطيع تغطية الحقائق الكبيرة . والحضارة التى تبعت انتشار الإسلام فى الأرض كانت من السناء والازدهار بحيث تعجز المكابرين وتكرههم على الإقرار بفضلها . ذلك إلى أن تأخر البلاد التى لم تعتنق الإسلام ، وتخلفها البعيد فى شتى الميادين يجعل مدنية الإسلام أكثر بروزاً وأشد تألقاً !!

ولو أننا رجعنا إلى الوراء قروناً لا تتجاوز أصابع اليد لرأينا من معالم الحضارة الإسلامية ومظاهر التأخر الغربى ما يدعو إلى العجب . كان المسلمون أنظف أبداناً وأنضر أفكاراً ، وأرق قلوباً ، وأرقى آذانا ، وأوسع عمراناً ، وأضخم غنى ، وأشد قوة من أقطار الغرب كلها . . وكانت عواصم الإسلام ملأى بالحمامات والمستشفيات والمدارس والجامعات والمصانع والمتاجر على حين أن عواصم الغرب كانت محرومة من أغلب هذه المؤسسات .

وكان المسلمون آية ناطقة بالتسامح الدينى ، والمرونة العقلية على حين أن أقطار الغرب كانت مبللة الثرى أبداً بضحايا القتال الدينى ، والحرية العقلية . ويظهر أن عدداً من رجالات الغرب رأى أن جحد ما للإسلام من أياد على العالم شيء غير مستطاع أو عمل غير صالح ، فسلك طريقا أخرى هى أن يعترف للمسلمين بفضل جزئى محدود ، ويواجه ما قدموه للعالم من مدنية وارتقاء . ثم ينسب جرثومته إلى اليونان الأقدمين . .

ومعنى هذا أن العرب نقلوا تراث الفلسفات الإغريقية الأولى وأنهم أضافوا إليها من عندهم أشياء ذات بال . وأنهم بذلك يستحقون الحمد على ما نقلوه ، وما أضافوه . إذ لولا تلك الجهود ما بدأ عصر النهضة ، ولا أبصر العالم الحديث بكنوز الإغريق الأولين ولا قامت هذه المدنية العظيمة التى يعيش الناس الآن فى ظلها .

* * *

وهذا الكلام ـ فى رأينا ـ لا يجدى فتيلا ، ولا يرضينا كثيراً ولا قليلا . والحق عندنا أن النهضة العقلية التى صنعها الإسلام مستقلة المنبع والوجهة . وأن التفكير الإسلامى المستقى من إيحاءات القرآن والسنة بعيد كل البعد عن منازع الفلسفات الإغريقية على اختلافها . وأنه إذا كان لأفكار اليونان من أثر فى ثقافتنا نحن ، فذلك الأثر هو أنها اعوجت بالعقل الإسلامى وضللت سعيه .

ونزيد على ذلك أن الحضارة الحديثة وكشوفها المادية وأساليبها العلمية لم تتقدم خطوة إلى الأمام إلا بعد أن نبذت فلسفة الإغريق . ومنطق أرسطو . واعتمدت على الملاحظة والتجربة والاستقراء . وهى أصول فى التفكير الإنسانى لا يعوزك أن تلمحها فى القرآن الكريم . وهو الكتاب الأول والأخير الذى أهاب بالإنسان أن ينظر فى الكون وأن يبنى معارفه على الحقائق لا على الظنون .

والإيحاءات الإسلامية الخالصة التي هي بنت حضارتنا . وهي التي كذلك أسدت للغربيين أقباساً من العلم نهضوا به وتحسسوا مستقبلهم عليه . والإعزاز العجيب للعقل الإنساني وحرية الفكر هو الذي أغرى أسلافنا الأوائل بغربلة التراث الإنساني كله ، دون شعور بحرج ديني أو قيد روحي .

وهو الذي دفعهم إلى الإغراق في هذه المذاهب والبحوث ، وسول لبعضهم أن يعتنق هذا الرأي أو ذاك من آراء الأقدمين ، ويقسر على ضوئه بعض أحكام الدين . وقد كان المسلمون يصنعون ذلك بينما كانت نوافذ الفكر الإنساني مغلقة بألف مزلاج في أوروبا ، فلو حاول رجل حر التطلع من خلال القضبان إلى آفاق الفكر الرحب فإن جزاءه ضرب العنق ، باسم الكهنوت الحاكم بأمره يومذاك .

فلما انتشرت الحضارة الإسلامية ، وتسربت مع الزمن إلى أقطار الغرب . ولما بدأ عصر الإحياء من آثار إحيائنا نحن للعقل والفكر في القرون الوسطى ... جاء من يقول : إن العرب لا فضل لهم أبداً في شيء . ثم خفف بعضهم من غلوائه فقال : بل لهم فضل النقل والتجديد ، نقلوا تراث اليونان وشرحوه !!

كأن أوروبا وأمريكا نهضتا اليوم بفلسفة اليونان من ثلاثين قرناً . لله ما أسوأ الكذب .. وما أخس الجحود !! إن المحققين المنصفين من مفكري الغرب يصرحون بأن هجرة البيزنطيين من شرق أوروبا لم تخلق عصر الإحياء . وأن عصر الإحياء جاء من العرب وحدهم ، ونضج عن حضارتهم المتفوقة .

وأن علماء بيزنطة لم يكن لديهم يوم هاجروا إلى الغرب شيء ينفعون به أنفسهم فضلا عن أن يرفعوا به غيرهم !!! ومع اعتقادنا بصدق هذا الرأي فنحن لا نرى ما نعاً من إثبات طائفة من الاعترافات المحدودة ، بفضل

العرب « الجزئى » على العالم ، مبتدئين بكلام الدكتور « فيليب حتى » نفسه الذى سبق أن صرح بأن العرب لم يكن لديهم شيء[١] قط يقدمونه للناس . قال :

« إن فترة الترجمة (٧٥٠ - ٧٨٥) التى ناقشناها فى فصل سابق قد أعقبتها فترة نشاط وابتكار لأن العرب لم يقتصروا فقط على هضم علم فارس القديم وما خلفه اليونان ، ولكنهم كيفوا كلا منها حسب حاجاتهم الخاصة ، وطرائق تفكيرهم ، ففى الطب والفلسفة كانت أعمالهم المستقلة أقل وضوحاً منهم فى الكيمياء ، والفلك والرياضيات والجغرافيا .

أما فى القانون وأصول الدين والاشتقاق وعلوم اللغة ، فإنهم - كعرب ومسلمين - قاموا بتفكير وبحوث أصيلة مبتكرة ، وكانت ترجماتهم - وقد أضفى عليها قدر غير يسير من العقل العربى فى أثناء انتقالها بين القرون العديدة - قد نقلت - مع ما أضافوا من مسائل جديدة - إلى أوروبا عن طريق « سوريا » و« أسبانيا » و« صقلية » وكانت أساساً فى قانون المعرفة التى تغلب على الفكر الأوروبى فى العصور الوسطى .

والنقل من وجهة نظر تاريخ الثقافة لا يقل مكانة عن الابتكار . إذ لو أن بحوث « أرسطو » و« جالينوس » و« بطليموس » فقدت ولم تصل إلى الخلف لأصبح العالم فقيراً فى العلم ولغدت البحوث وكأنها لم توجد بتاتاً » اهـ .

* * *

ويعود « فيليب حتى » إلى طرق الموضوع بأسلوب أقرب إلى الاعتدال

(١) المسلمون يعرفون معرفة اليقين أن دينهم يقوم على التوحيد ، وأن التوحيد موضوع الإسلام وعنوانه ، ومع ذلك فإن « فيليب حتى » ينقل للغربيين كلاما معناه أن المسلمين يعبدون الكعبة أى أنهم وثنيون .

إننا مبتلون بمن يزور ديننا وتاريخنا جميعا !!!

فيقول : فى هذا العصر أخذت العاصمة الأموية « قرطبة » مكانها كأعظم مركز للثقافة فى أوروبا . وكانت هى وكل من القسطنطينية[١] و« بغداد » مراكز الثقافة الثلاثة فى العالم أجمع .

فكان فيها مائة وثلاثة عشر ألف مسكن وإحدى وعشرون ضاحية وسبعون داراً للكتب ، وعدد عديد من حوانيت الكتب والمساجد والقصور . . وكانت لها بذلك شهرة دولية تبعث الرهبة والإعجاب فى قلوب السياح . وكان فيها أميال من الطرق المرصوفة التى تضاء من بيوت تقوم على حدود الشوارع .

وذلك ما لم تكن تتمتع بمثله « لندن » و« باريس » حتى بعد سبعة قرون من ذلك التاريخ . فى تلك القرون كان الذى يجرؤ على الخروج من عتبة بيته فى باريس فى يوم مطير يغوص فى الوحل إلى عقبيه . وفى الوقت الذى ما كانت فيه جامعة أكسفورد ترى أن الاستحمام عادة وثنية كانت الأجيال من علماء قرطبة تتمتع بالاستحمام فى مؤسسات فاخرة .

ويدلنا على موقف العرب حيال برابرة[٢] الشمال وفكرتهم عنهم ما ورد فى كلام العالم الطليطلى صاعد القاضى « المتوفى سنة ١٠٧٠ » الذى قال عنهم : « إن إفراط بعد الشمس عن مسامتة رءوسهم برد هواءهم ، وكثف جوهم ، فصارت لذلك أمزجتهم باردة وأخلاطهم فجة ، فعظمت أبدانهم وابيضت ألوانهم وانسدلت شعورهم فعدمت بهذه دقة الأفهام وثقوب الخواطر وغلب عليهم الجهل والبلادة وفشا فيهم العمى والغباوة » !!!

---

(١) المؤرخون الصليبيون يزعمون هذه المكانة للقسطنطينية وهى مزاعم لا أساس لها .

(٢) برابرة الشمال هو تعبير آبائنا عن غرب أوروبا وشمالها ، والدول التى تزعم الآن أنها ورثت الحضارة كانوا « برابرة » كابرا عن كابر ، ولم تتلق عنهم شيئا أبدا . . !!

وحينما كان الحكام فى « ليون » و« نبرة » أو « برشلونة » ، يحتاجون إلى جراح أو مهندس أو أستاذ فى الموسيقى أو صانع للملابس كانوا يبحثون عنه فى قرطبة ويجدون طلبتهم فيها . ولقد وصلت شهرة العاصمة الإسلامية حتى اخترقت ألمانيا البعيدة ووصفتها إحدى الراهبات السكسونيات بأنها « جوهرة العالم » كذلك كانت المدينة التى كان يقيم فيها الحاكم الأموى ورجال حكومته .

ويسرنى أن أثبت هنا مقتطفات للأستاذ « عبدالله نعمة » من كتابه « هشام بن الحكم » يتضمن معلومات نافعة فى الموضوع الذى خضناه ، ويتناول بالعرض والنقد طائفة أخرى من آراء المستشرقين الصادق منهم والكذوب .

قال يروى هذه الفرية عن رينان ثم يرد عليها : «لا ينبغى أن نلتمس عند الجنس السامى دروساً فلسفية . . فإن الفلسفة لم تكن قط عند الساميين إلا عارية ، أخذوها عن غيرهم ، ولم تتعد ظاهر حياتهم ، ولم تكن عظيمة الثمر ، وإنما كانت تقليداً للفلسفة اليونانية . ولم يفعل العرب أكثر من أنهم تناولوا مجموع المعارف اليونانية ، كما كان العالم كله يقبلها فى القرن السابع والثامن . . وينبغى أن لا نخدع أنفسنا فيمن كانوا يسمون بين العرب فلاسفة ، فلم تكن الفلسفة إلا أمراً عارضاً فى تاريخ العقل العربى »[١] .

ويستدرك « رينان » بعد هذا الهراء السخيف فيقول : « أما الحركة الفلسفية الحقيقية فى الإسلام فينبغى أن تلتمس عند فرق المتكلمين وفى علم الكلام بنوع خاص »[٢] . ولكن « البارون كرادى فو » يثبت وجود حركة فلسفية عند المسلمين قبل تعرفهم على الفلسفة اليونانية فيقول :

---

(١) إبراهيم بن سيار ص ٦٩ .

(٢) المصدر نفسه .

« قبل دخول الكتب الفلسفية اليونانية إلى المسلمين كان هؤلاء من تلقاء أنفسهم قد أنشأوا حركة فلسفية ، ثم اتسع تفكيرهم وازداد بسبب ازدياد الأثر اليونانى »[١] .

فهو يميل إلى وجود الحركة الفلسفية بين المسلمين ابتداء ، لكن نموها ودقتها كان بسبب دخول العالم اليونانى . ثم قال : « ويرى الدكتور « سارطون » إن بعض المؤرخين يحاولون أن يستخفوا بما قدمه الشرق للعمران ، ويصرحوا بأن العرب والمسلمين نقلوا فقط العلوم القديمة ولم يضيفوا إليها شيئاً ما ، إن هذا الرأى خطأ ، وإنه لعمل عظيم جداً أن ينقل إلينا العرب كنوز الحكمة اليونانية ويحافظوا عليها ، ولولا ذلك لتأخر سير المدنية بضعة قرون »[٢] .

ولكن هل صحيح أن العرب لم يجدوا شيئاً بعد اليونان ؟ يقول « نيكلسون » : « وما كانت المكتشفات اليوم لتحسب شيئاً مذكوراً بإزاء ما نحن مدينون به للرواد العرب الذين كانوا مشعلا وضاء فى القرون الوسطى المظلمة ولا سيما فى أوروبا . . »[٣] .

ويقول « دى فو » : « إن الميراث الذى تركه اليونان لم يحسن الرومان القيام به ، أما العرب فقد أتقنوه وعملوا على تحسينه وإنمائه ، حتى سلموه إلى العصور الحديثة »[٤] . فالفكر العربى الإسلامى لم يكن عند هؤلاء راكداً أو ناقلا ، بل كانت فيه الروح والحياة ، ولم يكن ميكانيكياً بل كان مبتدعاً .

ويؤكد « البانديت نهرو » أن العرب كانوا يحملون روحاً استطلاعياً

(١) المصدر نفسه .
(٢) الخالدون العرب ص ٤ للأستاذ (قدرى طوقان) .
(٣) المصدر السابق .
(٤) المصدر السابق .

يحاكم ويفكر قال : « . . . وإن العرب امتازوا بهذه الروح الاستطلاعية مما يجعلهم يدعون - بجدارة - آباء العلم الحديث . لقد صنعوا أول مكبر ، وصنعوا أول بوصلة ، وكان أطباؤهم وجراحوهم ذوى شهرة عالمية طبقت آفاق أوروبا »(١) .

ثم قال المؤلف : وإنا لو رجعنا إلى الوثائق والمستندات التاريخية والآثار التى تركها لنا العرب لوجدنا أرقاماً كافية للتدليل على أنهم لم يكونوا ناقلين فحسب ، بل إنهم أضافوا إلى التراث اليونانى ابتكارات وأفكاراً جديدة لم يعهدها من قبلهم . إن أكثر ما نشاهده من هذه الخوارق اليوم أو نستخدمه أو نسمع به ، إنما جاء نتيجة تجارب وجهود كثيرة فى قرون متطاولة ، كان العرب يقومون من ورائها ويشاركون - بتفوقهم العقلى - فى وضعها .

وقد يكون هذا القول مفاجأة تثير التساؤل لأول وهلة ، ذلك أن تراث العرب مجهول لنا ولكن الحقيقة ينبغى أن تبرز . . ورجوعنا إلى الوثائق الثابتة يؤكد أن للعرب القدم الراسخة فى أغلب العلوم المعروفة اليوم ، وفى الكشوف الحديثة ، وسنثبت ذلك فيما يلى :

١ - دوران الأرض حول الشمس :

إن الفكرة الشائعة هى أن أول من تكلم عن دوران الأرض حول الشمس هم « جاليليو » و« برنو » و« كوبرينكوس » لكن الواقع أن السابق لهم جميعاً فى الكلام حول دوران الأرض هو « عضد الدين عبدالرحمن ابن أحمد » الذى عاش قبل هؤلاء بمائتى سنة على الأقل .

٢ - الجاذبية :

والمعروف أن أول من تكلم على الجاذبية واكتشفها هو « إسحاق نيوتن » حين علل سقوط التفاحة من الشجرة بجاذبية الأرض لها . ولكن سبقه إلى

---

(١) لمحات من تاريخ العالم ، ص ٣٥ .

ذلك « الرازى » بمئات السنين ، فقد عاش فى القرن السادس الهجرى وعلل « المدرة » التى رماها وسقطت بعد ارتفاعها . وانتهى تفكيره إلى القول بأن فى الأرض قوة قاهرة تحكم على الأشياء بالانجذاب إليها .

٣ ـ البصريات :

والحسن بن الهيثم هو أول من وضع علم البصريات منذ حوالى ألف سنة ، الذى له الأثر العظيم فى الحياة المعاصرة ، ذلك العلم الذى يبحث فى سقوط الأشعة والضوء على الأجسام الثقيلة . وبهذا العلم اتصلت نظريات الضوء وانفتح الباب أمام مخترعات كثيرة ، واستحق ابن الهيثم به أعظم التقدير من علماء أوروبا فقد قال عنه « فياردو » : « إن ابن الهيثم هو العربى الذى تعلم منه رجالنا الكبار من أمثال العلامة « لبكر » .

٤ ـ الرياضيات :

ومن الثابت أن « محمد بن موسى بن شاكر » هو واضع علم الجبر بأمر المأمون العباسى فى القرن التاسع الميلادى وعنه أخذته أوروبا ولا زالت تسميه باسمه العربى « الجبر » وأولاد موسى وهم « محمد » و« أحمد » و« الحسن » هم الذين وضعوا المعادلات الرياضية . وعلى هدى تلك البداية العربية للرياضيات كانت تلك المخترعات الهائلة كالصواريخ والأقمار الاصطناعية والراديو وسواها .

٥ ـ الكيمياء :

وينبغى أن لا ننسى فى هذا المضمار أمام الكيمياء « جابر بن حيان » واتكاء أوروبا بعد نهضتها على كشوفه واحتياجها إلى ترجمة كتابه « الاستتمام » الذى نقلته إلى اللغة اللاتينية عام ١٦٨٢ لتتعلم منه ما لم تكن تعلم . وقال « برتيلو » عن جابر : إن له فى الكيمياء ما لأرسطو فى المنطق .

ويتبين بذلك أنه ابتكر الكيمياء كما ابتكر « أرسطو » المنطق . والثابت

أن علماء العرب أحدثوا ثورة علمية عظمى ، واكتشفوا « الكحول » ، و« حامض الكبريتيك » ، و« حامض النتريك » ، و« البوتاس » ، و« ملح النشادر » ، و« الراسب الأحمر » . وهم أول من استخدموا الطرق الجديدة فى عمليات الكيمياء كالتقطير والترسيب والتصعيد والتذويب والبللورة والتحويل .

وهم أول من اخترع الساعة الدقاقة والساعة المائية ، وقد أهدى الرشيد ساعة دقاقة إلى الإمبراطور « شرلمان » فكانت أعجوبة أوروبا فى ذلك الوقت ، وقد شاهد السائح بنيامين منذ ٧٠٠ سنة فى الجامع الأموى فى دمشق ساعة ذات أثقال أخذ منه الذهول لمرآها كل مأخذ .

وكانت الساعة تحتوى على فتحات بعدد ساعات الليل والنهار فإذا انقضت ساعة وقع من فم طائر مصنوع من نحاس كرة فى حجم البندقة فيحدث رنين واضح ، وعد لطائر عنقه ثم يغلق الباب على فتحة من الفتحات فيعرف الناظر إليها كم مضى من الليل والنهار(١) .

وأسطورة « رينان » فى العقل العربى السامى ، التى خدعت أناساً كثيرين هى من الأساطير التى يشيدها الوهم والخيال ، ولا تعتمد على أساس صحيح ، إنه يحتكر التأمل الفلسفى ودقة التفكير على العقل الآرى ، وأما العقل السامى فهو سطحى راكد لا حياة فيه ولا يتعدى الظواهر !!

وما أقرب أن تكون هذه الفكرة استعمارية ، يذيعها المستشرقون باسم العلم والفلسفة والتاريخ ، أجل هم يشيعون هذا ليخلقوا عقدة نفسية عند العرب ، وليزعزعوا إيمانهم بتفكيرهم ولينتزعوا ثقتهم بأنفسهم ، وليبعدوهم عن الانتفاع بآثار الفكر العالمى والاستفادة من تراثهم القديم .

---

(١) جريدة الجمهورية ٢٢ فبراير سنة ١٩٥٨ .

إنها فكرة مصدرها الاستعمار الذى لم يكتف بانتزاع أوطاننا ، وثرواتنا ، ثم أخلاقنا .. وديننا . لم يكفه كل ذلك حتى أخذ يعمل على انتزاع أثمن ما يملكه إنسان وهو ثقتنا بتفكيرنا وأنفسنا ، إنه يعمل على ذلك ليضع الخط الدفاعى عن استعماره ، وليخلق فينا عقدة النقص ، وليشعرنا بقصورنا عن حل مشاكلنا ولنقف فى جهودنا وتفكيرنا ولنعتمد على المستعمرين فى أخذ كل فكرة ترد عنهم أخذ المسلمات دون تأمل ولا مناقشة ولا محاكمة لأننا لا نملك القدرة على التأمل والمناقشة والمحاكمة ، ولننظر إليهم على أنهم الآريون أصحاب الفكر الدقيق والنظر الدقيق نظرة التقديس والإكبار ، أو نظرة العبد إلى سيده .

إن وراءها ـ بدون شك ـ غاية استعمارية واضحة ، والجدير بالذكر أنهم أرادوا أن يسلبونا الثقة حتى بسعة الخيال ، فقد قال بعض المستشرقين : « إن العرب ضيقو الخيال ، وأن سعة الخيال وعمق الفكر وقف على الآريين ، وإذا عرض عليهم ابن الرومى الشاعر آمنوا بخياله وعمق تفكيره ، ولكن قالوا : إن جده رومى من عنصر آرى ، وإذا عرض عليهم « المعرى » قالوا : إنه لا خيال له لأنه عربى صميم[1] .

وأخال أنه لا حجة لديهم فى إنكار عمق تفكيره وسعة خياله اللذين يبدوان فى كتابيه « اللزوميات » و« رسالة الغفران » إلا لأنه عربى صميم . الهدم التاريخى الذى يحمل رايته المبشرون وأغلب المستشرقين ، غايته كما نرى إفقادنا الثقة بأنفسنا ، واليأس من حاضرنا لأنه لا ماضى لنا ، ولا عراقة .. !!!

وهيهات هيهات ، فيكفى من آثارنا الغائرة فى التاريخ ، الخالدة على الزمن أننا نحمل رسالة الحق ، ونتلو آياته ، وأن أمجادنا القديمة إذا غطاها نكران الجميل حيناً ، فلا بد أن تعرف على وجهها الصحيح ، طوعا أو كرها ، وحبل الباطل قصير ..

(١) شرح ديوان ابن زيدون لكامل الكيلانى ص ٢٨ .

● **الهدم العسكرى :**

كلا الهدمين الروحي والتاريخي يستقى عرامته وخباثته من التفوق السياسي والحربي الذى ظفر به خصوم الإسلام فى القرنين الأخيرين . وهو تفوق يرجع إلى ازدهار العلم المادي والنشاط العمراني في العالم غير الإسلامى . على حين هبطت القيم الأدبية والمادية فى بلادنا هبوطا شنيعا ، وفتكت بأمتنا علل نفسية وجماعية لا حصر لها .

علل نبتت فى ربوعها مذ خف تمسكها بالإسلام وعملها به وعملها له . ولا عجب فالحقل الذى لا يزرعه صاحبه وينصرف عنه ، يزرعه الشيطان بالشوك والحسك ، أو يبقى جدبا لا ترى فيه إلا الطين . . ومنذ أهمل المسلمون رسالتهم ، وتخففوا من أعباء الجهاد لها ، والسير فى سناها . أخذت سفينتهم ترنح ، وتكاثرت فى جوانبها ثقوب الحمقى ، فما هى إلا مرحلة أو مرحلتان حتى ترسب إلى القاع .

وكان المستعمرون من اليهود والنصارى يرقبون النتائج المحتومة فلم يضيعوها . وكيف يضيعونها وهم لم يفتروا عن مناوشة هذه الأمة فى عنفوانها ؟ أفيتركونها وقد أثخنتها الجراح ، وبدا للأعين أن شمسها غابت وآذنت بمغيب .

لقد وثب الاستعمار شرقيه وغربيه على الأمة المهيضة ، واستبقت الذئاب المتربصة نحو الغنيمة الباردة ، فعادت كل دولة من دول أوروبا بقطعة من أرض الإسلام ، ثم أعلنت فى أرجاء الدنيا أن هذه القطعة أمست لها .

وصحا المسلمون من غيبوبتهم ، كما يصحو النيام فى دار امتد الحريق إلى جميع غرفاتها ، فهم فى فزعتهم ، مقسمو الجهود بين استنقاذ للمال والولد ، وحصار للنار الممتدة فى كل ناحية ، ومحاولات للإطفاء أو

للنجاة ، وهول لا يعرف مداه ولا تدرى عقباه . وظهر جليا أن أعداء الإسلام قد صمموا على أمر واحد . يسرعون إلى إنفاذه إن أمكنتهم اليدان . . ؟ أو يرجئون تحقيقه ساعة بعد أخرى إن اعترضتهم عوائق غير منظورة .

هذا الأمر الواحد ، هو الإجهاز على الإسلام وأمته . ودفن رفاتها تحت جنادل قائمة لا يتبعثان منها أبد الدهر . والموقف الآن بعد صراع قرنين ، بين المغيرين المزودين بكل سلاح ، والمدافعين الذين يقاومون بما تيسر (!) يتلخص فى أن الاستعمار تمكن من إقامة « إسرائيل » فى أرض فلسطين تمهيدا لشطر الكيان الإسلامى كله ، فى هذا الجزء الحساس منه .

كما تمكن من الاحتفاظ بالجزائر فى حوزته ـ برغم كفاح أهلها الباسل الرائع الكريم . وهو يستهدف من إقامة ـ إسرائيل ـ توسيع النطاق الذى تخيله بعد محو العروبة والإسلام من الأقطار المجاورة . كما يقصد من الاحتفاظ بالجزائر إمكان الوثوب على الشمال الأفريقى كله حين تسنح الفرصة . وإلى جانب هذا وذاك فقد أنشأ الاستعمار له قواعد مكينة فى وسط أفريقية .

وفى شرقها وسع رقعة الحبشة على حساب الشعوب الإسلامية وفى غرب أفريقية نراه يصنع دويلات نصرانية الحكم فى أمم إسلامية !! أما فى آسيا فقد أطلق القاديانية فى « باكستان » فجعلها تولد ميتة وشجع الخيانات فى كل ناحية ، ومهد للإلحاد والفساد ، فإذا الشيوعية تبتلع عشرات الملايين من المسلمين فى روسيا .

والذى لم تأكله الشيوعية يحيا مزعزع الإيمان سقيم الوجدان . . والخطة الاستعمارية ماضية فى طريقها وفق سياسة توضع بالنهار ولا تبيت بالليل . غرضها واضح ، لا إسلام بعد اليوم . ومن المغفلين من يحسب قضية فلسطين صراعا بين « مليون » يهودى و« مليون » عربى ، على قطعة من

الأرض اغتصبها هؤلاء من أولئك .

كلا ، إن الصراع عالمى بين الدول المكلفة بقتل الإسلام والفتك بأتباعه ، وبين العرب والمسلمين جميعا . . واليهود ليسوا إلا أداة فى يد الآخرين . الآخرين الذين يقولون - دون حياء - إن إسرائيل خلقت لتبقى . ولو صرحوا بما ينتوون لقالوا - للمسلمين جميعا - إن بقاءكم أنتم أيضا مرهون بأجل قريب ، ثم تذهبون إلى حيث ألقت . ومأساة الجزائر تحمل الطابع نفسه . وانحصار القتال فيها الآن لضرورات موقوتة وإلا فالهدف الكبير سحق المسلمين فى هذه المناطق من الشمال الأفريقى كله .

والهدم العسكرى الذى تتعرض له الأمة الإسلامية ، بدأ على نطاق واسع فى أخريات القرن التاسع عشر الميلادى ، ولم يتأخر فى الوصول إلى غاياته المرسومة إلا لما ينشب من حروب بين المستعمرين أنفسهم . وكلما هادن بعضهم بعضا شرع الزحف الحقود يطرد فى مجراه ، لا يحيد قيد شعرة عن أمله وعمله ، أمله فى قتل الإسلام ، وعمله لتقريب الوفاة . . ! !

وعلى الداعية المسلم - وهو يقاوم هذا الهدم - إفهام أمته أن ذلك ليس إدراكا لثأر قديم - كما يزعم المستعمرون - وإنما هو تجديد لعدوان سابق ، وتكرير لمآس سلفت . فإن الإسلام يرعى حق الحياة لمخالفيه ، ويعاملهم على قدم المساواة مع أتباعه . ولذلك فهو أبعد ما يكون عن التصعب والاعتداء .

أما النصرانية ، فهاك ما يكتبه عنها أحد مفكرى الغرب الكبار وهو الأستاذ « بابيه » ترجمة الدكتور « عبدالحليم محمود »[1] : « أثبت ذلك الباحث أن السبب البارز - بل السبب الوحيد - الذى جعل « الامبراطور

(١) من كتابه « أوروبا والإسلام » بتصرف قليل .

قسطنطين » يتخذ المسيحية دينا رسميا إنما هو ما رآه فيها من التعصب الذى لا يوجد فى غيرها من الأديان المعروفة على عهده ، والمنتشرة فى « روما » يوم ذاك . لقد رأى أن هذا التعصب هو الذى سيشد أجزاء الامبراطورية برباط من حديد ويمنع عوامل الاسترخاء والتحلل التى أخذت منذ أمد تسرى فى أوصالها .

وكان الامبراطور مبتئسا محزونا لحال مملكته المترامية الأطراف وللاحظته بوادر التفكك فى كيانها الرحب . فوجه جهده لجمع هذه الأشلاء ، التى توشك أن تتداعى . فلما نظر إلى الأديان السائدة ، وجدها ثلاثة متعادلة ، انتشرت بينها العداوات فكل منها يصارع الآخر ليصرعه . وهو - عندما نظر إليها - لم يلتمس فى أحدها الهداية والرشاد . ولم يكن باحثا عن النجاة فى الدار الآخرة .

إن ذلك لا يعنيه بقدر ما يهمه اختيار أشدها تعصبا ، وأكثرها استعدادا للتنكيل بالمخالفين ، والاستئثار دونهم بالحياة والسلطة . ولقد وجد ضالته المنشودة فى المسيحية فاختارها بعدما وثق من تحقق آماله فى رجالها . وقرر - لهذا السبب فحسب - جعلها دينا رسميا للامبراطورية . . » ثم وكل إليها أن تستأصل شأفة اليهود ، والوثنيين .

وتحقق للسياسى الداهية ما يريد ، فإن الحاكم يعبد دولته كما يعبد الشحيح ثروته ، وهو يتخذ كل شىء وسيلة لتوطيد حكمه ، وإعلاء شأنه - وحده . وقد حاولت المسيحية - لما ظهر الإسلام - أن تطبق عليه قانونها العتيد ، وأن تعامله بخاصتها الفريدة . فلما أعجزتها صلابة المؤمنين به تولت عنهم وهى تصمهم بأقبح السباب . .

وظلت - على بعد - تتربص بهم الدوائر حتى إذا لاحت فرصة للوثوب ، هجمت لتلغ فى الدم الحرام ، وتنفرد فى الأرض بالبقاء . . عيب الإسلام أنه عرف هذه العلة ، وتغلب عليها ، ولم يضعف أمام

الحاقدين . إن طبيعة الصلة بين النصرانية والإسلام تشبه - إلى حد بعيد - طبيعة الصلة بين « الشيوعية » أو « النازية » وبين النظام البرلماني الأصيل .

فإن ذلك النظام يحقق للأفراد والجماعات أنصبة مطلقة من حرية القول والعمل ، ومن حق الحياة والتجمع والمعارضة . . وفي ظل هذا الوضع الديمقراطي يستطيع « الشيوعيون » أن يظهروا ، وأن ينشروا رأيهم ، وأن يهاجموا خصومهم ، وأن يكون لهم حزب معترف به . وذلك كما نرى في « انجلترا » و« فرنسا » و« إيطاليا » وغيرها .

فإذا حدث أن تكونت للشيوعيين كثرة محدودة وصلت بهم إلى الحكم تغيرت الأوضاع القديمة للفور ، وألغيت الأحزاب الأخرى ، وخنقت الآراء الناقدة ، وأمسى مفروضا على المعارضين أن يذوبوا ، أو يتجمعوا - إذا شاءوا المخاطرة بأعناقهم - في جوف الليل ، وفي خفية عن الرقباء ، كما نرى في « روسيا » و« الصين » وغيرهما .

وهكذا الحال بالنسبة إلى الإسلام ، إنه يمنح غيره ضمانات البقاء كلها ، ولذلك عاش الكافرون به في كنفه دون حرج . ذلك أن طبيعته في المعاملة إذا حكم ، هي هذه الديمقراطية الراقية . أما إذا حكم غيره ، فإن الأرض الفضاء ستضيق به ، وفرص البقاء ستنعدم أمامه . وذلك هو السبب في أن المسيحيين عاشوا في الأندلس يوم كان الحكم فيها إسلاميا .

فلما انهزم المسلمون وتحول الحكم إلى أيدي الصليبيين لم يسمح للإسلام ولا لأمته ببقاء . ففني وفنوا جميعاً في هذه البقعة من أرض الله . وما زالت المأساة تتكرر في غيرها من أقطار الأرض . هل مرونة النظام الديمقراطي عيب فيه ؟ وهل سعة أفقه جناية عليه ؟

كذلك يظن بعض الناس . وهم يردون مصارع الديمقراطية في البلاد التي تلاشت فيها - كألمانيا النازية مثلا - إلى هذه العلة . والأمر يستعدي

التأمل أو التحسر ، فإن تقوض النزعات الإنسانية الراقية أمام المذاهب الحاقدة يعطى هذه النزعات حقوقا أن تخرج على طبيعتها حيناً لتصون نفسها ، وتحفظ بقاءها .

وإذا كان التعصب للنفس وحدها ديدن الصليبية إذا حكمت ، فمن الواجب إيصاد أبواب الحكم أمامها ، وكذلك الشيوعية . . . والغشاوة المضروبة على أعين هؤلاء وأولئك والتى تجعلهم يحسبون الحق هو ما عندهم وحدهم ، والباطل هو كل ما لدى غيرهم لا تعطيهم بداهة أى حق ضد الآخرين فهى غشاوة جهالة ، وجشع ، وضيق فطن ، أكثر من أن تكون غيرة على الحقيقة المعتنقة .

والغريب أن الصليبية لما انقسمت على نفسها مذاهب متعددة عامل كل مذهب مخالفيه فى الرأى على قاعدة « البقاء للأقوى » و« الويل للمغلوب » و« لا حق إلا عندى » . والأغرب من ذلك أنها تتهمنا ـ نحن المسلمين ـ بالتعصب . . . !!

وقد كتب الأستاذ « عبدالرحمن الشرقاوى » يشرح هذا المعنى فقال : جرت عادة المستعمرين من الإنجليز والفرنسيين ، كلما تناول خطباؤهم أو كتابهم الكلام عن الشرق والشرقيين ، أن يتعرضوا ـ من قريب أو بعيد ـ إلى خلائقنا ، ليلصقوا بها ما تفرق من نقائص البشرية كأنها خصائصنا اللازمة .

وهم يبادرون فيرموننا بما فيهم من طبائع الجور والنفاق والشهوة . ولا يزال فى مقدمة ما يتجنون به علينا ، نسبة التعصب الدينى إلينا . وهم يسلكون إلى ذلك سبيل الزيف والتلفيق خصوصاً الإنجليز والفرنسيين ، ولا يرجعون فى ذلك إلى شاهد صدق من التاريخ . والعجيب فى الأمر أن وصمة التعصب الدينى أظهر ما تكون فى تاريخ كلتا الأمتين كما رواه الثقات من الأعلام من مؤرخيهما .

فإن فرنسا الكاثوليكية لا يسعها فى سجل تاريخها إلا أن تذكر اضطهاداتها لرعاياها البروتستانت طوال قرنين من الزمان . كانت واسطة عقدها مذبحة « سان بارتلوميو » التى بلغ عدد ضحاياها فى باريس وغيرها من المدن الفرنسية نحو الثلاثين ألفاً من البروتستانت فى مدى شهرين . ولقد ظل أشياع هذا المذهب من الفرنسيين مغبونين مضطهدين لا يعرفون طعم الحرية الدينية ، حتى كانت الثورة الفرنسية .

أما الإمبراطورية البريطانية ، فليس أدل على التعصب الدينى عند الإنجليز البروتستانت من سوء معاملتهم للكاثوليك فى إيرلندة . فقد سمحت انجلترا بقيام برلمان فى « إيرلندة » ولكنها جعلته مقصوراً على البروتستانت دون غيرهم ممن يخالفون الإنجليز فى الدين .

فإذا ذكرنا أن الكثرة فى « إيرلندة » هى للكاثوليك المحرومين ، تمثل لنا التعصب الإنجليزى فى أرذل مظاهره وأسمجها وقاحة ، وأنكلها تضييعاً للحقوق المدنية وإهداراً للكرامة القومية ! ولقد كان هذا البرلمان البروتستانتى الذى صنعه الإنجليز فى « أيرلندة » سوط عذاب على « الكاثوليك » .

فقد جعل يصدر كل جائر من القوانين ، ويصبها أكداساً على أكداس فوق رءوسهم ، حتى قال أحد المؤرخين المحدثين من الإنجليز ـ على الرغم من اعتداده بإنجليزيته ـ: إن هذه القوانين تعد شر ما ورد فى اللغة الإنجليزية . وعبر عنه اللسان الإنجليزى . كان من تعصب الإنجليز على الكاثوليك إن لم يكف حرمانهم من حق التمثيل فى برلمانهم الإيرلندى . بل صدرت القوانين إثر القوانين بحرمان الكاثوليك من العمل فى أية وظيفة من وظائف الدولة ، ومن حق الانتخاب النيابى .

وكذلك من الاشتغال بالمحاماة أمام المحاكم ، ومن مزاولة صناعة الطب ، وما شابه ذلك من مرافق العيش . . حتى القيام بحراسة غابات

الصيد حرم على القوم .. فلما صمد الكاثوليك لهذاالحرمان من وسائل العيش وأسبابه ، طلع عليهم البرلمان البروتستانتى بقوانين أخرى تعمل على تفكيك الأسرة ، وقطع وشائج الأرحام بين الأخ وأخيه ، وبين الأب وابنه ، لعلهم بما قد يؤدى إليه فصم العرى العائلية من توهين العصبية القومية .

ومن أمثلة ما شرعوه لهذا الغرض من تشريعاتهم أنه إذا طاب للولد الكاثوليكى أن يعتنق المذهب البروتستانتى فقد سقطت ولاية والده عليه ووجب انتزاع الولد من والده وإيداعه فى كنف وصى بروتستانتى ، مع الحكم على والده بأداء نفقته .

وأبلغ من هذا نكاية بالرجل الكاثوليكى وأشد تحريضاً عليه وإغراء به ما يوجبه القانون عليه إذا ارتأى أخوه الأصغر اعتناق البروتستانتية : فإن الأخ الأصغر فى هذه الحالة يخلفه على كل ما يثبت له . ويصبح الصغير البروتستانتى بحكم القانون رب الأسرة . ومما تناولته هذه القوانين الجائرة من الشئون الخاصة ، أنه ليس لكاثوليكى أن يرث من مات من أهله بغير وصاية ، ولو كان أقرب أقربائه ، وأمسهم به رحماً .

وأما الزواج فقد كان محرماً عقده بين البروتستانت والكاثوليك مع ما بينهما من جامعة المسيحية . فإذا اجترأ قسيس على عقد مثل هذا الزواج اعتبر باطلا . وإذا كان الزوج الكاثوليكى محامياً سقط حقه فى مزاولة مهنته وأما القسيس فقد حق عليه الشنق ... !!!

ومن غرائب هذه القوانين التى تشبه النوادر ، تحريمها على الكاثوليكى اقتناء جواد يربو ثمنه على الخمسة جنيهات حرماناً له من مظاهر الوجاهة . فإذا ثبت أن جواده أعلى من ذلك قدراً ، وجب أن يجد له مشترياً بروتستانتياً ، وأن يبيعه إياه بخمسة جنيهات فقط . وفى هذه الشذرات - ولاشك - الكفاية ، وفوق الكفاية ، للدلالة على ما أصدره البرلمان



الإيرلندي البروتستانتي - صنيعة الإنجليز - من قوانين ظلت أمداً غير قصير سارية نافذة على الكاثوليكية في الجزيرة الإيرلندية .

ولا نحسب القارىء يستغرب - بعد ما قدمناه من عجائب هذه القوانين . . . حين يعلم أن تشريعاتها الأولى قضت - فيما قضت به - بالقبض على كل كاثوليكي تسول له نفسه الجريئة أن يكون بين المتفرجين في شرفة البرلمان .

* * *

هذه هي أساليب المعاملة بين شتى الطوائف المسيحية هناك . وقد انكسرت حدة هذه الأحقاد قليلا مع انتشار العلم ، وشيوع الإلحاد ، وبغض الكثيرين لنتائج الخلاف الديني التاريخي القديم . لكن هذه البغضاء لم تختف في الواقع بل توارت تحت ألبسة من الختل والمداهنة قضت بها ضرورات موقوتة . .

على أن المؤسف أنها بالنسبة إلى الإسلام لم تزدها الليالي إلا ضراوة . . ولنذكر مثلا مما حدث في طليعة هذا القرن ، قبل أن نفيض القول فيما يقع الآن . حينما نشبت حرب البلقان عام ١٩١٢ بين الدولة العثمانية من ناحية ودول البلقان المؤلفة من (اليونان ، وبلغاريا ، والصرب ، والجبل الأسود) من ناحية أخرى ، خشيت الدول الأوروبية أن تنتهي الحرب بانتصار الدولة العثمانية فأعلنت الدول الأوروبية الكبرى قراراً حاسماً بلسان المسيو « بوانكاريه » وزير خارجية فرنسا صرح فيه نيابة عن تلك الدول بأنه لا يسمح للمنتصر في هذه الحرب بأن يجنى ثمرة انتصاره ، أو بضم أى جزء من أراضي خصمه المغلوب إلى بلاده .

ولما انتهت تلك الحرب بتغلب دول البلقان على الدولة العثمانية وفتكت الجيوش البلقانية بالمسلمين نساء وشيوخاً وأطفالا في وحشية هائلة وصفها المرحوم أحمد شوقي في قصيدته :

يا أخت أندلس عليك سلام ... هوت الخلافة عنك والإسلام

بدلت الدول الأوروبية الكبرى موقفها فوراً . وأعلنت موافقتها على ضم البلاد العثمانية التى احتلتها دول البلقان إليها ، وهى ولايات « الروملى » جميعاً المؤلفة من (سلانيك ، مناستر ، قوصوة ، يانية ، شقودرة ، والروملى الشرقى) .

ولم يبق للدولة العثمانية شيء من أراضيها الشاسعة شرقى أوروبا التى كانت الكثرة الساحقة من سكانها مسلمين ، بل كان عدد المسلمين فيها حينئذ نحو خمسة عشر مليوناً إلا « أدرنة » التى استرجعها الجيش العثمانى قبيل إنهاء تلك الحرب .

ولما ذكرت الدولة العثمانية حينئذ الدول الأوروبية بقرارها المذكور كان جوابها : « إن ما يأخذه الهلال من الصليب ، يجب أن يعود إلى الصليب ، أما ما يأخذه الصليب من الهلال فلن يعود إلى الهلال » . وعلى أثر ذلك بعثت الدولة العثمانية بأحد وزرائها ، وهو « سليمان البستانى » المسيحى ، لمقابلة « بوانكاريه » وتذكيره بتصريحه الرسمى فى بداية الحرب .

فلما قابله واسترعى نظره إلى نتائج هذا الموقف وسوء تأثيره على عواطف مئات الملايين من المسلمين الذين تحكم فرنسا جزءاً وافراً منهم أجابه بوانكاريه : « مسيو بستانى ، إنك مسيحى عاقل وإن هذه الملايين لو اجتمعت كلمتها وانتظم عقدها لحسبت أوروبا حسابها ، وأما فى حالتها الحاضرة فليس لها أى وزن » .

* * *

وقد تضطر دول الغرب تحت ضغط الوجل من الحروب ، والرهبة من دمارها والاتعاظ بما عانت من آلام ، قد تضطر للاحتكام إلى بعض المواثيق الإنسانية والخضوع لمعاهدات عالمية . ولكن ذلك كله ينسى إذا

كان الأمر متصلا بالمسلمين ، إن منطق الحقد وحده هو الذى يعلو .

ولذلك كان السلطان « عبدالحميد » رحمه الله يردد هذه الكلمة فى كثير من المناسبات : إن لدى الدول الأوروبية ميزانين ، أحدهما بالنسبة لجميع شعوب العالم يزن الأمور بالعدل والقسطاس ، وأما الآخر فهو بالنسبة لنا نحن المسلمين ، وهو ميزان جائر خاسر .

* * *

● **حديث ذو شجون :**

الدعاة المسلمون فقراء كل الفقر إلى تعرف ما أصاب دينهم وأمتهم من كوارث التعصب الصليبى وفواجعه القديمة والحديثة على سواء . ولو أفردت لهذا الموضوع مادة علمية مستقلة فى دراساتهم التاريخية والإسلامية لما كان ذلك كثيرا .

ويخيل إلى أن هذا الجهل الشائع إما أن يعود إلى غفلة حقيقية سوف تنتهى بصاحبها إلى التلاشى حتما . وإما أن يكون أثراً لخطة مرسومة تستهدف تجهيل المسلمين فى أسباب عطبهم ، حتى يستدرجوا إليها وهم بله . ثم يتخلص خصومهم منهم فى صمت .

وددت لو أن جمعاً كبيراً من هؤلاء الدعاة كان معى عند السيد « أمين الحسينى » مفتى فلسطين وهو يسرد على أطرافاً من مآسى الحقد التى تعرض لها العرب والمسلمون فى الآونة الأخيرة ، والتى أصابتهم بجراح لن تندمل أبداً . بل ستظل تقطر دماً على اختلاف الليل والنهار أو يقضى الله أمراً كان مفعولا ، كان هذا الرجل يتكلم ، وليس فى صوته رنين حزن ، لا لأن شعوره ضعيف بالنكبة التى اجتاحت دينه وقومه فى فلسطين ، كلا ، فإن أثر النكبة راسب فى أغوار حسه ، ولكنه كما قال أبو الطيب :

رماق الدهر بالأرزاء حتى فؤادى فى غشاء من نبال

فصرت إذا أصابتنى سهام ‏ تكسرت النصال على النصال

كان الرجل مثلا للإسلام المكافح فى معركة لا تكافؤ فيها ولا عدالة . ولكنه ـ بدوافع اليقين والرجاء ـ يصابر الأيام ولا يفكر بتة فى الانسحاب من الميدان . . سمعته يتحدث ووعيت منه حقائق كثيرة . أثبت نبذاً منها فى هذه الصحائف علها تكون عبرة للعقلاء ، وذكرى للمؤمنين .

قال : إن قصار النظر من المسلمين يحسبون أن أوروبا وأمريكا هجرتا الدين وابتعدتا عن إيحائه الجلى والخفى فى الشئون المحلية والعالمية . وهذا غلط فاحش ، بل جهل مطبق بما يدور فى العالم من أحداث ، وما يقوم وراءها من نيات ، وما يطلب بها من نتائج . فليس يخفى على ذى بصيرة أن الناحية الدينية لها الأثر الأكبر فى توجيه السياسة الدولية ، وأن التكتلات القائمة على شتى العقائد ، هى التى تمسك بزمام الأمور وتديرها وفق هواها ، مستعينة بالأوضاع الاقتصادية والعسكرية وما إليها .

أمام العالم الإسلامى اليوم خمس كتل متميزة تدور فى علاقاتها العامة حول محور ثابت ، ولا تنسى نفسها أبدا فى زحمة المؤامرات ، أو حركات الجذب والإرخاء فى المؤسسات الدولية المعروفة .

(أ) هناك الكتلة البروتستانتية التى تقودها أمريكا وانجلترا ، وكلتا الدولتين تعاون الأخرى وتشد من أزرها فى السياسة العالمية ، ولما كان البروتستانت شديدى الاعتماد على مقررات العهد القديم ، والاهتمام بأحكامه[١] . فإن ذلك قوى آصرتهم باليهود ودفعهم إلى مناصرتهم ضد العرب باعتبار أن إقامة وطن قومى لليهود قد قالت به نصوص العهد القديم المعترف به منهم جميعا .

ومن ثم أعطت انجلترا وعد « بلفور » بإنشاء هذا الوطن ، وقامت

(١) البروتستانت يحرمون التماثيل استنادا إلى أحكام التوراة .

« أمريكا » بتنفيذه بعد ذلك . والدولتان الآن متفقتان على حماية إسرائيل بعد خلقها بالقوة ، وهو اتفاق تغذيه عقيدة مشتركة من احترام التوراة . وعداوة مشتركة من كراهية القرآن . . ومع أن « مصلحة « أمريكا » و« انجلترا » كانت تنقضى باسترضاء العرب ، لإمكان إنشاء أقوى جبهة ضد الشيوعية . بيد أن الدولتين تضحيان بهذه المصلحة الظاهرة تحت تأثير ذكريات دينية وأحقاد تاريخية .

(ب) وهناك الكتلة الكاثوليكية ، وهى تنتظم فى سلكها بضعا وعشرين دولة فى جنوب أوروبا ووسطها ، ثم أمريكا اللاتينية بأسرها ، عدا الطوائف الكاثوليكية الكثيفة المنتشرة فى العالم . والجميع يلتفون حول الفاتيكان ويرونه المصدر الروحى لكل توجيه نافذ .

وأغلب الدول الكاثوليكية تخضع خضوعا تاما لمشيئة بابا روما ، وتستمد منه فكرها وعاطفتها . ويلاحظ أن البابا حمى أسبانيا من كل شر فى أعقاب الحرب العالمية الثانية مع أنها انضمت إلى دول المحور ، وكان المفروض أن تتعرض لشىء من العقوبات الاقتصادية . لكن سلطان الفاتيكان لم يحمها فقط ، بل قدم لها معونات مالية سخية لإصلاح شئونها الاقتصادية .

(جـ) وهناك الكتلة اليهودية . . وبنو إسرائيل . وبنو إسرائيل لا يزيد تعدادهم فى الأرض على ستة عشر مليونا . ولكنهم فى البقاع التى يوجدون فيها يملكون من أسباب السيطرة المادية والأدبية ما يجعلهم أقدر من أمة كالصين أو الهند تضم مئات الملايين .

واليهودى حيث كان ابن عقيدته وجنسه ، وعصبيته لدينه ولقومه لا يرجح أمامها شىء . فهو فى « روسيا » يهودى قبل أن يكون شيوعيا ، وفى « أمريكا » يهودى قبل أن يكون رأسماليا . وقد استطاع يهود روسيا وأمريكا أن يجعلوا سياسة الدولتين تتحد ضد العرب على تكوين

إسرائيل ، برغم ما بين الدولتين من خصام سافر عنيف .

ويهود العالم يتحركون وفق سياسة دقيقة يرسمها لهم مجلس حكماء صهيون توضح لكل جماعة منهم دورها الذى تقوم به كى تبقى لليهود مكانة متميزة فى أرجاء العالم . وهمهم الأول الآن هضم القطعة التى التهموها من كيان الإسلام وأمته ، والتهيؤ لمزيد بعدها . . والتعاون مع الاستعمار لإدراك هذه المآرب .

(د) وهناك الكتلة الشيوعية ، وتضم الآن : روسيا ، والصين ، ورومانيا ، وبلغاريا ، والمجر ، وبولندا ، وتشيكوسلوفاكيا ، وألبانيا ، ويوغسلافيا وجملة أحزاب ضخمة ينتسب لها قريب من ثلث السكان فى إيطاليا وفرنسا ، ودول أخرى . والشيوعى يدين بولائه لمذهبه ، ويتجه فى قبلته إلى « روسيا » والشعوب الضالعة معها . ولا ينظر إلى وطنه إلا من خلال هذا الولاء المقدس . وبديهى أنه لا يعرف له رباً .

وهو يكره الأديان على العموم ، ولكن بغضاءه للإسلام أشد . إذ أنه يراه مزوداً بطاقة من اليقين أقوى ، وجملة من الشرائع المالية والاجتماعية تغنى عن أى نظام آخر . ولذلك لم تظهر الشيوعية إلا فى أوروبا ، ولم تجد لها موئلا فى أنحاء الوطن الإسلامى الرحب إلا حيث أفلح الاستعمار فى زلزلة العقيدة ، وإبعاد التشاريع والتقاليد الإسلامية من الحياة العامة . وإذا استقرت الشيوعية فى بلد فمعنى هذا الاستقرار أن الدين كله مات ، وأن الإسلام ـ على الخصوص ـ قضى عليه ، وأن ما بقى من رفاته رسوم لا وزن لها ولا أثر ، تتخلف عن العدم قليلا ثم يدركها المصير المحتوم .

(هـ) وهناك الكتلة الوثنية ، ومركزها الرئيسى جنوبى آسيا ، وإن كانت مجاهل أفريقية لاتزال ملأى بهذه الفئات المتقطعة من البشر . . إلا أن البرهمية والبوذية والنحل المتشابهة فى الهند ، والفيتنام ، وسيلان ، وما جاورها تتمتع بقوى كبيرة . ولا يستغربن القارىء إذا علم أن مستقبل

المسلمين فى هذه البلاد مهدد بأخطار شتى . وأن هذه الوثنيات زاحفة لا جامدة !!!

والسر هو ضغط الاستعمار ، وضعف المسلمين . واستطرد السيد مفتى فلسطين يقول : إننا ـ نحن المسلمين ـ مقت ضروب الاستعمار وألوان التعصب ، ونود لو يحيا البشر ـ على اختلاف عقائدهم ـ متعاونين متعارفين ، وأن يتنفسوا فى جو من السماحة والتراحم . ولكن من لنا بتحقيق هذا الأمل ؟

إن المؤسسات الدولية التى افترض فى قيامها أن تصل إلى هذا الغرض ، كانت ـ للأسف الشديد ـ أول من خان قضايا العدل والحرية . وأيا ما كان الأمر فنحن ـ ببواعث خالصة من ديننا ـ سنظل نقاوم ـ ما حيينا ـ كل ظلم يقع بنا ، وكل غبن يقترفه الأقوياء ضدنا ، وكل أمنية حمقاء فى تركنا للإسلام ، ومحاولة تهويد قطر وتنصير آخر ، من أرضه الطيبة .

وقد قلت لك : إننا نكره الاستعمار كله شرقيه وغربيه . بيد أنى أقصر الكلام الآن على نوع خبيث منه ، مرجئاً الكلام عن غيره إلى فرصة أخرى . إن الغزو الصليبى الذى التهم بعض بلادنا ، ويتربص الدوائر بالبعض الآخر له خصائص يجب أن نذكرها . فهو ـ أولا ـ امتداد لضغائن قديمة لم تبرد جذوتها على مر الأعصار ، واستمرار لنوبات من الحقد تعترى القوم فينطلقون كالقذائف المدمرة ، ويصيبوننا بأشد الخسائر .

وهو ـ ثانيا ـ العلة التى أوهنت الإسلام فى الهند ، وقوضت حكمه ، وانتزعت من يده السلطات الحقيقية لتضعها فى أيدى الوثنيين . وهو ـ ثالثا ـ مصدر الجراثيم التى جعلت بعض الأغرار من شبابنا يظن فى الشيوعية خيراً . وبلاد الإسلام كانت فى حصانة أسبغتها عليها تعاليم الكتاب والسنة وتقاليد الفضل والكرم التى تتوارثها . غير أن الاستعمار الغربى فى حملته على الإسلام ، وقتله لدراسته أحدث هذه البلبلة التى

تعانيها أمتنا فى بعض أجزائها .

وهو - رابعا - ملح كل الإلحاح فى تقطيع أوصالنا . ومهما هددته الكوارث ، وفرضت عليه مصلحته أن يصالحنا أو يهادننا غلبته سورات العداء الغبى ، فأبى إلا المضى فى إهانتنا . وهو - خامسا - يتناسى خلافاته الداخلية ليوحد صفه وعاطفته ضدنا . إن الناس لا يزالون يذكرون كلمة « اللنبى » لما دخل بيت المقدس : « الآن انتهت الحروب الصليبية » .

ويذكرون أنه دخل هذا الحرم بين يدى حشد طويل من القسس والرهبان والمباخر والصلبان والتراتيل الدينية . لكن المدهش أن هذا الانتصار فى الحرب العالمية الأولى لم يرحب به أصحابه فقط ، بل رحبت به ألمانيا المهزومة . ألمانيا التى اندحرت مع حليفتها تركيا فى هذه الحرب !!! إن الألمان ما كادوا يستمعون إلى نبأ دخول الإنجليز بيت المقدس ، وتتردد فى آذانهم كلمة « اللنبى » حتى سارعوا هم الآخرون يقرعون نواقيس الكنائس فى طول البلاد وعرضها ترحيبا بفوز الانجليز وإعلاما للفرحة به .

والمضحك أن الأمير « شكيب أرسلان » كان فى ألمانيا يومئذ ، فكتب يعاتب الألمان على هذا الموقف ، ويذكرهم بأنهم إنما يفرحون بانكسار زملائهم فى الميدان ، وهيهات !! لقد ذهب العتاب مع الريح أو مع تيار الحقد القديم . ثم قال : يجب أن نعترف بأن الصليبية نجحت فى محو الإسلام من الأندلس بعد ما غنيت مدائن الأندلس وقراه بهذا الدين ثمانية قرون طوال .

وقد أغرى هذا النجاح بطلب المزيد . ولولا قوة الأتراك العسكرية فى السنين التى تلت هذه الكارثة لتابع القوم زحفهم ، وكرروا ما حدث فى الأندلس بأقطار أخرى . فلما ضعف العثمانيون وضاعت هيبتهم الحربية ، قرر القوم استئناف عملهم الأول ، وبلوغ أهدافهم نفسها ، وإن تغيرت

بعض الوسائل .

وكان لابد - فى نظرهم - من محو الإسلام من جنوب أوروبا وشرقها ، ثم الوثوب على مواطنه الأولى فى القارتين القديمتين ، لقطع دابره . وتم لهم - بالفعل - ما أرادوا ، فمحوا الإسلام من جنوب إيطاليا ، ومن صقلية وكريت . وشرع الصليبيون فى إتمام خطتهم ، فأوعزوا إلى دول البلقان والقوقاز أن تقاتل الأتراك ، وأن تدمر معالم الإسلام فى كل بقعة من هذه الأرجاء ، كما أوعزوا إلى الأرمن أن يحدثوا فتوقا فى كيان الدولة ، وأن يرتكبوا خيانات كثيرة لحساب روسيا القيصرية وحلفاء الغرب جميعا . .

واندلعت نيران الفتنة فى أماكن شتى ، وسعرها الأوروبيون بما استطاعوا من وقود . وانتهى الأمر على ما بيتوا ، فقد كان المسلمون من الفرقة والعجز والانحلال بحيث تخلت عنهم العناية ، واستمكن من أعناقهم الأعداء . والموقف الآن جد خطير ، فإن الأندلس كانت فى أطراف العالم الإسلامى ، وانحسار الإسلام عنها - على فداحة المصاب فيه - لا يستتبع النتائج الخطيرة التى يستتبعها على وجه اليقين تهويد فلسطين فى آسيا وتنصير الجزائر فى أفريقية . إن ذلك إن تم اليوم - لا قدر الله - فمعناه الذى لاشك فيه ، أن الإسلام ضائع غداً من أفريقية وآسيا جميعاً ، وأن أمته كلها إلى بوار .

ومن ثم فكل محاولة للرضا بقيام إسرائيل ، أو للتفريط فى قضية الجزائر ، فهى ارتداد عن الإسلام وخيانة عظمى لأمته . وعلى أولى الغيرة والنجدة أن يتدبروا العواقب ، ويوجلوا من سوء المصير وأنا لهم النذير العريان !!! أجل ، فخلف أسداف مطبقة من الصمت المتعمد تجرى الآن أحداث رهيبة لسحق الإسلام سحقا لا قيامة منه .

هذه مصيبتنا فى الجزائر ، هل يعلم الغافلون مداها ؟ إن التقدير

الابتدائى لخسائر المسلمين فى الأرواح منذ قامت الثورة الأخيرة تربو على ستمائة ألف قتيل . أما القرى التى محيت بعد ما تعرضت للنسف والتدمير بوحشية سافلة ، فحدث عنها ولا حرج . وهذه المجزرة التى لم يتوقف السفاحون إلى الآن لحظة عن المضى فى فظائعها تنظر أمام المؤسسات العالمية بشىء ظاهر من قلة الاكتراث ، أو عدم المبالاة .

وتدحرج من سنة إلى أخرى ، فلا يتخذ فيها قرار . وستظل تتدحرج إلى أن يستطيع الجيش الفرنسى الإجهاز على الضحية ، وإخماد أنفاسها فلا يسمع لها صراخ .. ومن وراء الجيش الفرنسى أسلحة حلف الأطلنطى كلها . إن الدم الذى يراق هو الدم الإسلامى . وهو الدم الوحيد الذى لا ثمن له . أو الذى توضع الأكاليل على رءوس سفاكيه .

أما فلسطين فدخلها الإنجليز وسكانها من اليهود خمسة فى المائة وأملاكهم - برغم جميع المساعدات الخفية - لا تبلغ ثمانية فى المائة . وتركها الإنجليز الشرفاء بعد ما استجلبوا من يهود الأرض ما جعلهم مثل العرب عددا ، وبعد ما ورثوهم أملاك العرب كلها : وتبذوا هؤلاء فى العراء . وهم لم يصلوا إلى هذه النتيجة إلا بعد سلسلة من المآسى الدامية ، قتل فيها ألوف الأحرار ، ومحيت فيها عشرات من القرى .

أما المساجد التى دكت ، والأوقاف التى نهبت فشىء لا حصر له . وفى الوقت الذى يدوخ فيه العرب ، وتحكم الخيوط حول وجودهم المادى والمعنوى حتى يحتويه ظلام الأبد ، فى هذا الوقت يتفجر سيل من الأموال الأمريكية والأوروبية إلى إسرائيل كى تقوى ، وتقوى . وبلغ ما بعثت به ألمانيا الغربية وحدها ٤٣ مليون ونصف من الماركات ، هذا عدا دول أوروبا الأخرى .

أما أمريكا فقد أرسلت وحدها أربعة آلاف مليون جنيه . والمغفلون وحدهم هم الذين لا يحسبون هذا الدعم ليوم له ما بعده . ليوم ترمقه

الصليبية من خلال الغيوب . وتعمل ـ بجلد ودأب ـ لتقريب موعده . إنه يومها المأمول . . اليوم الذى تنقض فيه على المنطقة كلها لتطوى أعلام الإسلام فيها طيا لا يعقبه نشور . .

ودول أوروبا تزعم لنفسها الحق فى حماية المسيحيين أينما كانوا وتتصيد الأكاذيب للتدخل فى شئون الآخرين باسم هذا الحق . المسلمون الذى جعلهم سوء الحظ قلة فى بعض الأقطار فمن حق دول أوروبا أن تضع سياسة صارمة لإبادتهم ، دون أن يحتج مسلم أو يعترض . ولا بأس إذا حدث شىء من ذلك أن يتهم هذا المسلم بالتعصب !!! أرأيت شبيهاً فى العالمين لهذه الصفاقة ؟؟

لقد هاجت الهيئات السياسية والدينية ضد الدولة العثمانية ، وافتعلت ضجيجا عاليا على ما أسمته مذابح الأرمن ، ولم تكن هذه القصة إلا عملا تأديبيا لقوم حركتهم أوروبا كى يطعنوا المسلمين فى ظهورهم ، ويسلموهم إلى أعدائهم . . والآن هل يتحرك أحد للأسلوب الهمجى الذى يعامل به العرب مثلا داخل إسرائيل ؟؟ ولندع عرب فلسطين جانبا فإن قضيتهم معروفة على الأقل للعرب أنفسهم .

أما مسلمو أوروبا الشرقية ، أما الثمانية عشر مليوناً من المسلمين المبعثرين فى هذه الأرجاء ، فإن قضاياهم تحتاج إلى قليل أو كثير من إيضاح . إن الإسلام يحتضر فى تلك البقاع دون صريخ ولا معين . . إن أندلسا أخرى تصنع الآن فى شرق أوروبا إتماما للخطة التى أشرنا إليها آنفاً . إن المسلمين فى هاتيك البقاع يشبهون غديراً تجمعت فيه المياه ، ولكنه انقطع عن ينبوعه ، فهو موشك على الجفاف ، مع انقطاع المدد ووقدة الجو .

غير أن أعداءهم يخافون أن تمتد حياتهم لأسباب غير منظورة ، فهم يستعجلون هلاكهم بالقتل قبل أن يطول بهم الأجل !!! ومن يدرى : ربما

تجددت لهم حياة مع حب العقيدة وقبول التضحية ؟ فليفتكوا بهم اليوم قبل الغد . ووقعت مذابح البلقان الأولى سنة ١٩١٢ وهلك فى أتونها الألوف المؤلفة من النساء والأطفال والشيوخ ، وصكت أسماع العالمين أنباؤها المفظعة .

أما دول أوروبا . . فلا نقول إن ذلك أرضاها وحسب ، بل نقول إن ذلك كان بإيعاز منها وتشجيع . . وأما الشرق الإسلامى فقد ضج بالبكاء . وترجم « شوقى » عن مشاعره الأسيفة بهذه القصيد المشهورة :

يا أخت أندلس عليك سلام !! هوت الخلافة عنك والإسلام !!

وفيها يصف ملك الصرب ، قائد تلك المجزرة ، فيقول :

سكينه ، وحزامه ، ويمينه والصولجان ، جميعها آثام

ولم يأبه الصليبيون لشىء من هذا . لقد تركوا الإسلام الجريح يلقى حتفه بعد هذه الطعنة الموجعة . غير أن الإسلام لم يمت ، وتحامل أهله على أنفسهم واستأنفوا السير فى قافلة الحياة . . وجاءت الحرب العالمية الثانية . جاءت ليستقبل المسلمون فى شرق أوروبا نكبة أخرى . فقد انضمت يوغوسلافيا إلى الحلفاء ، وحاولت أن تكون عونا لهم على دولتى المحور « ألمانيا ، وإيطاليا » .

فلما حمى الوطيس لم تلبث « يوغوسلافيا » قليلا أمام الجيش الألمانى حتى استسلمت ، وفرت حكومتها لتقيم فى القاهرة تحت جناح انجلترا . . المسيطرة يومئذ على الشرق الأوسط كله . وبقى فى « يوغوسلافيا » وزير الحربية اليوغوسلافى يقاوم الألمان على رأس فلول من العصابات المعتصمة بالجبال .

فهل هذه كانت حقا وظيفة الجنرال « ميخايلوفتش » قائد هذه العصابات ؟ كلا إنه انتهز فرصة انشغال الألمان فى الجبهة الروسية واشتباك

أغلب قواهم فى معاركها المريرة وتجنيدهم فرقة من الشباب اليوغوسلافى المسلم للعمل فى هذا الميدان البعيد ، انتهز « ميخايلوفتش » هذه الفرصة ووثب على القرى الإسلامية ، وأعمل فيها الفتك والسلب والنهب ، وأرخى العنان للضغائن التى إحبست حينا ثم أمكنها الآن أن تتنفس !! فإذا السيف يحصد من المسلمين كم ؟ كم الذين هلكوا فى تلك النار الموقدة ؟ مائتا ألف مسلم .

إن الفكرة التى استيقظت بغتة هى إخلاء هذه الديار من المسلمين العزل المفجوعين !! وهام جمهور الموحدين على وجهه لايدرى أين يذهب ؟؟ ويقدر الهلكى من المرض والجوع والبرد بمائتى ألف أخرى . . يقول مفتى فلسطين ـ وكان يومئذ لاجئا إلى ألمانيا ـ أبرق إلى بعض زعماء المسلمين يطلبون النجدة فأسرعت إلى وزارة الخارجية الألمانية أستحثها على علاج الموقف ! فأجابتنى : إن هذه المنطقة أصبحت خاضعة لإيطاليا .

فسافرت إلى « روما » فورا وقابلت « موسولينى » وقلت له : إنه لو قتلت فى بلادنا أسرة واحدة من الكاثوليك ، بل شخص واحد فقط لقامت الدنيا . ولكن هنا ، فى منطقة احتلالكم ، وقعت مجازر هلك فيها الآن قريب من مائتى ألف مسلم . فأمر « موسولينى » وزير خارجيته « كونت شيانو » بمقابلة السفير الألمانى « فون ماكنزى » لاتخاذ إجراءات مشتركة كى توقف هذه المذابح ولكن المذابح لم تقف ، وإن تك وطأتها خفت قليلا .

قال : فسافرت مرة أخرى إلى « برلين » ثم إلى « فيينا » ثم إلى « زغرب » . وبعد جهود مضنية تمكنت من السفر إلى « سرايفو » على مقربة من الأحداث الشنعاء . واستطعت إقناع القائد الألمانى هناك أن يزود المسلمين بالسلاح ، ليدافعوا عن أنفسهم . وتفاهمت مع زعماء الطائفة الإسلامية على طريقة العمل ، فألفنا جيشا من شبابهم بلغ تعداده المائة ألف . وما كاد يظهر فى الميدان حتى انسحب الجنرال « ميخايلوفتش »

إلى أوكاره فى الجبال . بل إن القائد الوغد أخذ يتودد إلى المسلمين ، ويظهر لهم اللين .

واليد التى أسداها مسلمو الشرق إلى إخوانهم مسلمى البلقان فى هذه المأساة العصيبة هى قرابة خمسة وثلاثين ألف جنيه تبرعت بها الحكومة المصرية وهيئة الهلال الأحمر لمواساة المنكوبين . . ولم تجد هذه النكبة شوقيا آخر يرسل وراءها عبراته . ولا استغرقت من تعليقات الأسى إلا سطورا ، قرأها المؤمنون حينا وعلى وجوههم سيماء الهزيمة والحزن ، ثم عمل الغزو الثقافى عمله فى جر ذيول النسيان على كل شيء . ولو أن أربعمائة ألف كلب ماتوا فى إحدى البقاع النائية ، لكان لذلك الحدث خبر يروى هنا وهناك .

ولكن القتلى مسلمون بين جماهير الأوروبيين مسلمون متعصبون بين أوروبيين معتدلين !! إن أحدا من رجال السياسة ، أو من رجال الدين فى القارتين المتحضرتين أوروبا وأمريكا لم يأبه لما حدث . لأن الذى حدث صادف هوى مكينا فى النفوس . ألم أقل لك : إن استباحتنا ، واجتياح بلادنا وعقائدنا شيء يستحق التكريم فى منطق هؤلاء ونظرهم إلى الأمور .

إنه عبادة يتقرب بها إلى الله ، وأدنى جهد فى هذه السبيل مأثرة تذكر لصاحبها - رجلا كان أو امرأة - بالحمد والثناء . وإلا فبماذا تفسر ما نشر فى الصحف أخيراً من أن الفاتيكان يطلب المعلومات الكاملة عن إحدى المجندات فى الجيش الإنجليزى الزاحف على السودان من ستين سنة للقضاء على ثورة المهدى ؟ إنه يطلب المعلومات عنها تمهيداً لرسمها قديسة . . !! بنت مصرية ، خرجت على وطنها والتحقت مجندة بالجيش المحتل . لم تكن طبيبة ولا ممرضة ، لأن الأمة المصرية يوم ذاك لم تكن تألف هذا النوع من العمل . إنها كانت شيئا لا ندريه . . ولا نذكره .

ولكن المهم أن البحث يدور حول تاريخها المجهول تمهيداً لدرج اسمها

مع القديسات . . !! وهاك الخبر كله ، كما نشرته مجلة « منبر الإسلام » التي تصدرها وزارة الأوقاف تحت عنوان : « هذه هى الحقائق ، فليقرأها الفاتيكان » . « قديسة مصرية شهيدة قتلت فى ثورة المهدى » . . « الفاتيكان يستعد لإدراجها بين القديسات » . .

هامبورج فى ٢٧ - ١ ش ١ - قالت اليوم مجلة « ردشبيجل » إن الفاتيكان قد طلب من الجمعية « الجيزويتية » - الآباء اليسوعيين - بالإسكندرية أن تجمع معلومات عن سيدة مصرية تدعى « مارى لطيف » كانت قد تحولت إلى الكاثوليكية ، وقتلت وهى تحارب إلى جانب القوات المسلحة المصرية فى ثورة المهدى عام ١٨٨٢ . وتقول الصحيفة : إن الفاتيكان قرر جمع المعلومات عن هذه السيدة تمهيدا لإعلانها قديسة بين قديسات الكنيسة الكاثوليكية . وختمت الصحيفة هذا النبأ بقولها : إن تقديس هذه البطلة المصرية من شأنه أن يعزز العلاقات القائمة بين الفاتيكان والعالم العربى .

هذا ما نشرته الأهرام . والحقيقة التى يعرفها التاريخ ، أن انجلترا - بعد احتلالها مصر - استشرفت بأطماعها إلى احتلال السودان ، وبدأت تمد لذلك حبائلها ، وتدبر خططها ، مستغلة ضعف الحكام المصريين الذين وقعوا تحت سيطرة احتلالها . .

ولما أحس المهدى بوادر التدبير ثار لإحباط ما يراه ببلاده من شر ، ورأت انجلترا فى هذه الثورة ما يهدد أطماعها الاستعمارية ، فاغتاظت وقررت القضاء عليه ، وسيرت إليه جيوشها بقيادة ضباطها الكبار ، وأعلنت على الملأ أنها إنما تحاربه لأنه ثائر على السلطة المصرية الشرعية ، ولكى تستر أغراضها ونياتها أكرهت الحكومة المصرية على أن ترسل بعض قواتها مع جيشها المحارب فى السودان .

وكان المعروف لدى ضباط وجنود القوات المسلحة المصرية ، أنهم

مسخرون لخدمة أغراض الاستعمار .. وكانوا يشعرون بالغيظ الخانق والألم المر ، إذ يرون أنفسهم مكرهين إلى السير لقتال إخوانهم في العروبة والدين والوطن . أو مكرهين على التمكين للعدو البغيض أن يحتل السودان ، وأن يقتل أحراره الثوار وأن يضرب على إخوانهم من الذلة والمهانة مثل ما ضرب على المصريين من قبل . فكانوا ينتهزون كل فرصة مواتية ، للفرار من الصف الإنجليزى والانحياز إلى صف الإخوة الأشقاء وذلك لجملة أسباب :

أولا : أن الجيوش التي كانت تقاتل المهدى هى جيوش إنجليزية لحما ودما ، وإليك شهادة الإنجليز أنفسهم ؛ يقول المراسل الحربى لجريدة « الديلى نيوز » المرافق للجيش الإنجليزى بشرق السودان : إن الجيوش الإنجليزية تقاسى مصاعب ومشاق شديدة فى قطع الطريق . ولما حوصر « غوردون » كتبت جريدة الديلى تلغراف تقول : إن هلاك « غوردون » أو وقوعه فى أسر المهدى يذهب بالأعمال الحربية التى قامت بها العساكر الإنجليزية فى السودان . وكان من قواد هؤلاء الجند : « غوردون » و« جراهام » و« هفت » و«هكس » و« باكر » وغيرهم ، وهى قطعا أسماء إنجليزية صميمة وليست أسماء مصرية .

ثانيا : أن الجنود والضباط المصريين كانوا يدعون صفوف العدو وينحازون إلى صفوف السودانيين حتى كان مع المهدى من الضباط وحدهم ما يزيد على خمسين ضابطا ، وتذكر « التيمس » فى غيظ أن « غوردون » لما اشتد عليه الحصار خرج بألفى جندى من المصريين لفك الحصار ، فتراخى الجند ، وانحاز خمسة ضباط إلى جند المهدى ، وقبض « غوردون » على اثنين من القوات الباشوات لأنهما حرضا الجند على التراخى ، وأعدمهما رميا بالرصاص .

ثالثا : أن هذه الحرب كانت حربا استعمارية قذرة ، وليست حربا مقدسة يستشهد فيها القديسون والقديسات ، وكيف يكون قديسا من

ينهض لحرب أقوام أبرياء مسالمين لم يعتدوا على أحد ؟ وكل جريمتهم أنهم أرادوا أن يعيشوا فى أوطانهم أحرارا ، فقاوموا رغبة المستعمر فى إذلالهم . ولاشك أن مبادىء السيد المسيح عليه السلام تبرأ كل البراءة من أى حرب عدوانية تراق فيها الدماء ، وتزهق الأرواح ، ويهدم العمران ، وتعم الخسائر والفواجع .

إذن فهذه السيدة المصرية ، كانت تصحب جيشا إنجليزيا ، لا جيشا مصريا . . وكانت تؤازر الجيش الإنجليزى على قتل الأبرياء ، وترميل النساء ، وتيتيم الأطفال ، تمكينا له على أغراضه الاستعمارية الخسيسة . . ولسنا نخلع عليها اللقب الذى تستحقه من وجهة النظر المصرية ، ولكنا نحسب أن سيدة هذا شأنها لا يرحب بها السيد المسيح فى زمرة القديسات . .

ولعل مما ينشرح له صدر الفاتيكان بهذه المناسبة أن من وقائع ثورة المهدى الثابتة أن « غوردون » كان قد أرسل فى طلب قسيس لنشر المذهب البروتستنتى بين مسلمى السودان ، لا لنشر المذهب الكاثوليكى الذى يعتنقه البابا . ولنسمع الآن ما يذكره السيد « جمال الدين الأفغانى » عن سماحة « المهدى » مع الكاثوليك ، قال فى العروة الوثقى : « جاء إلى الخرطوم ضابط مصرى وأخبر أن رسل الكاثوليك فى مدينة عبيد تحت كنف « محمد أحمد المهدى » فى حرية تامة ، تجرى عليهم المرتبات من طرفه وأن كنيستهم مفتحة الأبواب » .

رابعا : أن تقديس هذه البطلة ، ليس من شأنه أن يعزز العلاقات القائمة بين الفاتيكان والعالم العربى ، كما تظن مجلة « ردشبيجل » فى آخر كلمتها . لأن السودان قطر عربى شقيق ، وكل العرب معه ينظرون إلى مثل هذا العمل - إذا وقع - نظرة جزع وألم ، ولاسيما أن الإنجليز أوقعوا ما أوقعوا بالسودان وهم يعلمون أنه قطر عربى ، وها هى ذى جريدة « التيمس » تصف جنود الجيش السودانى بأنهم « عرب » حين ذكرت

إحدى هزائم « غوردون » إذ قالت : « وعاد غوردون إلى الحصون وغنم العرب من جيشه مقدارا وافرا من الذخائر » .

ووقف « لورد جرانفيل » فى مجلس اللوردات يتكلم عن مقاومة العرب لا مقاومة السودانيين فيقول : « إن المقاومة التى لاقيناها من قبائل العرب فى سواحل البحر الأحمر ـ شرق السودان ـ كان الغرض منها تمكين سلطة المهدى فى البلاد السودانية » .

* * *

وبعد . . فقد ذكرت المجلة التى نشرت الخبر أن الفاتيكان طلب من الجمعية الجزويتية « الآباء اليسوعيين » أن تجمع المعلومات عن هذه السيدة التى كانت تدعى « مارى لطيف » . وها نحن أولاء نضع تحت أنظار الجمعية « الجزويتية » هذه الحقائق لعلها تصلح لأن ترفع للفاتيكان !!!
أما حال المسلمين الآن فى ألبانيا ويوغوسلافيا وغيرهما من دول البلقان فإن للكلام فيه صحائف أخرى ، نرجو عون الله قريبا كى تنشر على حقيقتها الكاملة . .

كما نرجو أن نوفق إلى إخراج بحث شامل عن حال المسلمين فى البلاد الشيوعية كلها . وأظن أن الدعاة المسلمين ، بعد هذه الإيماءة العجلى إلى حال دينهم وأمتهم أمام الكتل المتألبة عليهم سيعرفون كيف يحمون الحقيقة من الضياع ، وأصحابها من التلاشى والفناء . أظنهم سوف يذكرون ولا يغفلون . . وأننا لنشكر سماحة مفتى فلسطين ، على هذا الدرس الذى سجلنا أصوله ، ووسعنا حقائقه وفصوله .

* * *

نمـــاذج حيـــة

● القـــرآن :

الداعية إلى الله صديق لكتابه الكريم ، يألف تلاوته ، وينتظم فى أداء ورده ، ويستوحش إذا حجزته عنه شواغل طارئة . والأصل أن يستوعبه كله حفظا وتجويدا . فإن قصر عن تلك الدرجة فلن يقصر فى إدمان مطالعته ، واستذكار موضع الاستشهاد منه . وليس المطلوب أن يكون الداعية وعاء لآى القرآن وأحرفه ، بحيث لو وصل إلى القمة فى هذا المجال وصف بأنه مصحف متحرك ، كلا .

إن صلة الداعية بكلام الله أسمى وأجل . إن المعانى العلمية للقرآن الكريم يجب أن تكون جزءا كبيرا من الحياة العقلية له . تسبح فى فكره كما تسبح الكواكب فى أجواز الفضاء : ففى رأسه صورة للكون كله كما وصفته آيات القرآن . وفيه تاريخ للأمم البائدة ، ولم لقيت مصارعها ؟ وإحصاء لأحوال النفوس ، وبيان للمطلوب منها . ووعى لشتى التشريعات الموزعة فى السور ، وفقه لأحكامها . وتصور لمشاهد الحشر والنشر يزاحم صورة الحياة الحاضرة . وحس بقيام الله على الخلائق كلها قياما يوضحه ختام الآيات بعشرات من أسمائه الحسنى .

وكما أن عقل الداعية يمتلىء بهذه المعارف النظرية ، فإن قلبه يجب أن ينتعش ببواعث الذكر الميسر له . وأن تستجيشه مصادر الرغبة والرهبة ، وتهزه معانى الوعد والوعيد . ويتحرك مع أدوار الصراع المستمر بين الحق والباطل . ويقشعر جلده فى مواطن الوجل ، ويستريح ضميره مع بواعث الطمأنينة .

الداعية رجل يحيا فى القرآن عقلا وعاطفة ، ويراه أساس وجوده المادى والمعنوى ، ووظيفته التى تشغله بمغانمها ومغارمها .. ولا ريب أن حياته

على هذا النحو ترقى آمادا رحبة عن مستوى الناس . إنها ترفعه إلى الملأ الأعلى وذاك معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة » . لكن ، هل يسهل الوصول إلى تلك المكانة ؟ والجواب : إنه ليسير على من يسره الله له ! والواقع أن إمساك الآيات فى الذاكرة صعب . ما لم يتعهدها الإنسان باستمرار التلاوة .

والقرآن فى جوف الإنسان أشد تفصيا من الإبل فى عقلها ، كما ذكر النبى صلى الله عليه وسلم ، فكيف بالحياة معه ، والتنفس فى جوه ؟؟ إن ذلك يحتاج إلى طول مجاهدة ، ودوام صحو . والدعوة إلى الله على كل حال ليست مسلاة امرىء خالى البال . فإن لم يستعد الرجل لها باستجماع قلبه ولبه فهيهات أن يصل . والجهد الإنسانى وحده ضائع ما لم تلحقه العناية العليا ، ويدركه الفضل العظيم . والأمر يتطلب مزيدا من الضراعة والإنابة والدعاء . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو فيقول[1] : « **اللهم أنا عبدك وابن عبدك ، وابن أمتك ، وفى قبضتك ، ناصيتى بيدك ، ماض فى حكمك ، عدل فى قضاؤك . .** » إلخ .

* * *

ورسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة فى هذه الصلة بالقرآن . ومنه يتعلم الدعاة كيف يكونون صلتهم بالوحى المبارك.. والداعية الذى يحيا فى جو القرآن ينشد للمجتمع حوله أن يحيا هو الآخر فيه ، وأن يقيم أوامره ويجتنب نواهيه ، وينفذ أحكامه ، ويرعى حدوده ، ويقبل عليه إقبال المعظم لرسالته ، الموقن بصدقها ، الراجى سعادة الدارين من ورائها . .

ومن ثم فهو يلفت النظر بقوة إلى أن التوقير المفتعل لمجالس القرآن وأصوات التلاوة ـ كما مردت على ذلك العامة ـ لا جدوى منه . وأن

(١) سبق ذكر هذا الدعاء بنصه الكامل فى صفات الداعية .

القرآن ما نزل لهذا ، ولا يخدم بهذا . القرآن أمة تنشأ فى بوتقته ، وكيان يصاغ وفق تعاليمه . قال الهراوى تحت عنوان « نحن نبغى القرآن » :

إن هذا القرآن يهدى إلى الر شد ويدعو لصالح الإنسان
نحن نبغى القرآن علماً وفهماً يخلقان الكمال فى الشبان
نحن نبغى القرآن لفظاً ومعنى فهو صقل الحجا وصقل اللسان
نحن نبغى القرآن ديناً ودنيا يتجلى هديه الحسنيان
نحن نبغى القرآن فى معهد الدر س وفى كل منزل ومكان

وقال الشاعر فى وصف بلاغته :

الذكر آية ربك الكبرى التى فيها لباغى المعجزات غناء
صدر البيان له إذا التقت اللغى وتقدم البلغاء والفصحاء
نسخت به التوراة وهى وضيئة وتخلف الإنجيل وهو ذكاء
لما تمشى فى الحجاز حكيمه فضت عكاظ به وقام حراء

والقرآن كله نماذج يتخير منها الداعية ، ما يناسب مقتضى الحال .

* * *

● **السنن :**

كم من السنين كنت سأقضيها بحثا وراء الحق الذى أهدانيه محمد صلى الله عليه وسلم وأنا فى ضمير الغيب ؟ وكم من الآلام كنت أعانيها وأنا أنفق العمر فى تجارب قبل أن أهتدى إلى السداد ؟ ومن الذى يضمن لى مع قدرتى أن أظفر بالحقيقة الغالية ، وقد تاه عنها رجال تشابهت عليهم الطرق حينا ، وانسدت فى وجوههم المنافذ حيناً آخر ؟؟

وهبنى أتيت قدراً من الذكاء الكشاف ، والنشاط الدءوب ، فمن للألوف المؤلفة من الناس الذين قلت حظوظهم المعنوية ؟ وكيف يحيون على ظهر الأرض ؟؟ إننى كلما أحسست راحة الإيمان فى نفسى ، وبرد

اليقين فى قلبى ، وروعة الدين الذى ينير باطنى ، أشعر بميل شديد إلى شكر الرجل الذى يسر لى هذا الخير وأتاح لى أن أعرف ربى الواحد جل شأنه وأن أقدر النعمة التى حولى وأدرى حق من بعث بها ؟

نعم إننى أشعر بميل إلى شكر محمد صلى الله عليه وسلم والتنويه بفضله ، والثناء على صنيعه كلما غسلت وجهى فى وضوء ، وطهرت بدنى لصلاة ، ووضعت وجهى على الأرض ساجداً أسبح ربى الأعلى !!! نعم ، وكلما سرت فى الطريق منتصب القامة رافع الرأس عزيز النفس أرمق الكبار والصغار على أنهم عبيد مثلى لله الذى أدعوه وحده وأرجوه وحده .

وكلما شعرت بأنى إنسان أعرف من أين جئت ؟ وإلى أين أصير ؟ ولماذا خلقت ، وماذا أفعل وماذا أترك ؟؟ وكلما تصورت أن هناك بشرا كثيرين تكتنفهم الحيرة والظلمة لأنهم محرومون من ذلك المتاع المتاح لى أحسست أن فى عنقى وعنق كل مؤمن مثلى ديناً للرجل الطيب الكريم الذى مهد لنا بجهاده هذا الصراط المستقيم ، ديناً لمحمد صلى الله عليه وسلم .

إن هذه نظرة قد تكون منبعثة من الأثرة . رجل أهدانى خيراً جزيلا ، وهدانى إلى حق جليل فبديهى أن أذكره وأشكره ، وأذيع بين الناس صنيعه . لكن لماذا لا يقدر المرء لفضله المجرد ؟ إن الجمال الرائع يعجب وكذلك الذكاء البارع ، والتفوق البارز فى أى شأن من شئون الحياة . إن المعدن الإنسانى النفيس يستحق أن يغالى به تلقائياً ، وأن تعرف له مكانته .

لقد طوفت ببصرى ، وأنا تحت ، ومعى على السطح ألوف مؤلفة من أوساط الخلق . رفعت الرأس ونظرت إلى القمة المتوجة بالنور والبر والبركة . تأملت فى سيرة محمد صلى الله عليه وسلم وشمائله وسياسته . ورأيت أنه من هنا انبجست جميع القيم والمثل التى تحدو الإنسانية

أمجادها . فعرفت سر الحقيقة التي تقال دون افتعال أو افتخار . تقال للتعليم لا للاستعلاء ، يقولها هذا الرسول نفسه : « أنا سيد ولد آدم . . ولا فخر » .

يقولها ليرسم الطريق أمام كل حر يكره الهوان . أمام كل امرىء يكره حيرة الباطل ، وهوان الجمود . أمام كل إنسان ينشد الوصول إلى أسباب السيادة الصحيحة . يقولها ليعرف الجميع من أين تؤخذ الأسوة الحسنة .

* * *

على كل داعية إلى الله أن يعرف قدر محمد صلى الله عليه وسلم جهد طاقته ، وإذا جأر إلى الله بالصلاة عليه ، فليودع هذه الصلاة روح الحب ، والشكر . . ثم على كل داعية أن يعرف كيف خلص هذا الحق له . وكيف وصل هذا الدين إليه . وكيف مهدت السبيل لجماهير السالكين إلى يوم القيامة . . إن العالم كان محكوما بإشاعات طويلة ، وظنون قاتلة ، وأوهام لا حصر لها .

وكما تشيع الفرية المختلقة بين بعض الناس فتمسخ تصورهم وتفسد أحكامهم ، شاعت عن الله وعن دينه أكاذيب بلغت من السمك والصلابة حدا يعيى المصلحين ، وهامت الجماهير فى القارات المائجة بسكانها تخبط فى ديجور ليس له قرار . ونظر الله إلى الخلق فمقتهم عربهم وعجمهم . لقد ضلوا ضلالا بعيدا . .

فى هذا العماء السائد ، بدأ بصيص من الحق يشتعل ، ونور من الوحى يتألق . وبدأ صوت سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يعلو بالهداية المستغربة . . وتحولت الدنيا كلها من حول الرجل المبلغ عن الله إلى عاصفة تريد اقتلاعه من جذوره . وظل العراك بين الفريقين قريبا من ربع قرن كان الحق الناشىء فيها يسقى بخلاصات من عرق المجاهدين ودماء الشهداء .

وكان البطل الجلد الصبور يضرب بذراعيه هنا وهناك كما تضرب الشمس بأشعتها أكناف السحب فى يوم غائم . ومازال يقاوم قوى الظلام حتى تغلب عليها وملأ الأرض بأنوار الإسلام . وقصة هذا الكفاح وما أثر عن الرسول فيه من قول ، أو فعل ، أو حكم ، أو تقرير هو سنة النبى العظيم صلى الله عليه وسلم ، يجب أن يدرسها الدعاة وأن يجعلوها بعد كتاب الله ، أساس الحكمة التى يتعلمون ، ويعلمون .

ويقول[1] الجاحظ ، ومكانته فى الأدب ما تعلمون ، يصف كلام الرسول : « ألقى الله على كلامه المحبة ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وهو مع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولا زلت له قدم ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل يبذ الخطب الطوال بالكلام القصير ، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج إلا بالصدق .

ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا ، ولا أصدق لفظا ، ولا أعدل وزنا . . من كلامه صلى الله عليه وسلم . وإنى محاول الآن أن أسوق لكم نبذا من قوله فى مواضع شتى ، ومعان متفرقة . فيها ترون الفصاحة والبلاغة المحمدية حية منيرة ، لم تبل القرون جدتها ولم تذهب شيئا من طلاوتها . انظروا إلى هذه الكلمات :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمرنى ربى بتسع : خشية الله فى السر والعلانية ، وكلمة العدل فى الغضب والرضا ، والقصد فى الفقر والغنى ، وأن أصل من قطعنى ، وأعطى من حرمنى ، وأعفو عمن ظلمنى ، وأن يكون صمتى فكرا ، ونطقى ذكرا ، ونظرى عبرة » . وقد وجدوا مكتوبا على قائم سيفه صلى الله عليه وسلم : « اعف عمن

---

(١) عن كتاب « بطل الأبطال » للأستاذ عبدالرحمن عزام .

ظلمك ، وصل من قطعك ، وأحسن إلى من أساء إليك ، وقل الحق ولو على نفسك » .

ويقول ابن عباس : كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لى : « يا غلام إنى أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، وأعلم أن الأمة كلها لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله (تعالى) لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله (تعالى) عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف » . رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

وعن أبى ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » .

وعن ابن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خصلتان من كانتا فيه كتبه الله تعالى شاكرا صابرا ، ومن لم تكونا فيه لم يكتبه الله شاكرا ولا صابرا : من نظر فى دينه إلى من هو فوقه ، فاقتدى به ، ونظر فى دنياه إلى من هو دونه ، فحمد الله على ما فضله به عليه » .

وعن حذيفة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يكن أحدكم إمعة ـ وهو الذى لا يثبت مع أحد ولا على رأى لضعفه ـ يقول : أنا مع الناس ، إن أحسن الناس أحسنت وإن أساءوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا أن تجنبوا إساءتهم » .

وعن معاوية أنه كتب إلى عائشة : أن اكتبى إلى كتابا توصينى فيه ولا تكثرى فكتبت : سلام عليك ، أما بعد : فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله

تعالى مئونة الناس ، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله تعالى إلى الناس » والسلام عليك .

وقال صلى الله عليه وسلم : « شر ما فى الرجل ، شح هالع ، وجبن خالع ، اتقوا الظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم . حملهم على أن سفكوا دماءهم ، واستحلوا محارمهم » . وقال : « إن الله كره لكم ثلاثاً : قيل وقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال » .

وقال : « لا تظهر الشماتة بأخيك ، فيعافيه الله ويبتليك » . وقال : « ألا أنبئكم بشراركم ؟ الذى يأكل وحده ، ويجلد عبده ، ويمنع رفده » . وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يوشك أن طالت بك مدة أن ترى قوما فى أيديهم مثل أذناب البقر ، يغدون فى غضب الله ويروحون فى سخط الله » .

وقال : « صنفان من أهل النار لم أرهما : قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات رءوسهن كأسنمة البخت لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها » . وقال : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ » .

ثم انظروا إلى هذه الكلمات الموجزة ، وتدبروا ما فيها من حكم بالغة : لا خير فى صحبة من لا يرى لك ما ترى له ـ رحم الله عبدا قال خيرا فغنم ، أو سكت فسلم ـ الناس بزمانهم أشبه ـ العدة عطية ـ العاقل ألوف مألوف ـ لاتزال أمتى بخير ما لم تر الأمانة مغنما ، والصدقة مغرما ـ اتقوا المهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه .

وكان صلى الله عليه وسلم خطيبا لا يبارى ، يقصد إلى الحقيقة ، فيضعها بين سمع الناس وبصرهم ، لا يحاول أن يستبى القلوب بزخرف

القول ، يكره التفاصح والتنطع ، بين العبارة ، واضح المعنى ، وله خطب طوال لا حشو فيها ولا تقصير ، وقصارى القول أن كلامه هو الكلام الموجز الشامل .

يقول ابو سعيد الخدرى : صلى بنا النبى صلى الله عليه وسلم يوماً صلاة العصر . ثم قام خطيباً ، فلم يدع شيئاً يكون إلى قيام الساعة إلا أخبرنا به . حفظه من حفظه ، ونسيه من نسيه ، وكان فيها قال : « إن الدنيا خضرة حلوة ، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون .

ألا فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ، ألا لا يمنعن رجلا هيبة الناس أن يقول بحق إذا علمه ، ألا إنه ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة بقدر غدرته ، ولا غدرة أعظم من غدرة إمام عامة . ألا إن الغضب جمرة فى قلب ابن آدم ، أما رأيتم حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه . . فمن أحس بشىء من ذلك فليلصق بالأرض » .

ثم انظروا إلى هذه الخطبة الجامعة لكثير من أصول الشرائع ، فى صفحة موجزة يلقيها على مائة ألف ، فى موقف عرفة ، فى حجة الوداع ، ففيها ألغى مآثر الجاهلية ، وقرر مبادىء المساواة ، وحرم الثأر ، وقضى بذلك على أقدم عرف للعرب ، وأمس شىء بقلوبهم ، وقضى كذلك على الربا ، ورفع درجة المرأة ، وحرم الفتن والنهب والغزو ، وكل مفخرة وعزة بالباطل ، وذكر الأشهر الحرم ، فسوى بين أوقات السنة فيها هو حلال أو حرام ، وحرم النسىء الذى ألفه الجاهليون . ونصح الناس فى أمور شتى ، وحذرهم ما يحقرون من أعمالهم ، وما يستهينون به من الآثام .

قال صلى الله عليه وسلم : « أيها الناس . . اسمعوا قولى ، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً . . أيها الناس . . إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض . السنة اثنا

عشر شهرا . منها أربعة حرم ، ثلاثة متواليات : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان . أى شهر هذا ؟ أليس ذا الحجة ؟ قالوا : بلى . قال : فأى بلد هذا ؟ أليس البلدة ؟ ـ يعنى مكة ـ قالوا : بلى .

قال : فأى يوم هذا ؟ أليس يوم النحر ؟ قالوا : بلى . . قال : فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا ، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، ألا فلا ترجعوا بعدى ضلالا يضرب بعضكم رقاب بعض . ألا فليبلغ الشاهد الغائب فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه . ألا هل بلغت ؟ ألا هل بلغت ؟ فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها . وإن كل ربا موضوع ـ أى مهدر ـ ولكن لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون [١] ، قضى الله أنه لا ربا ، وإن ربا العباس بن عبدالمطلب ـ عم النبى ـ موضوع كله .

وإن كل دم كان فى الجاهلية موضوع ، وإن أول دمائكم أضع دم ربيعة ابن الحارث بن عبدالمطلب ـ أى ابن عم النبى ـ . أما بعد : أيها الناس ، فإن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبداً . ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك ، فقد رضى بما تحقرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم .

أيها الناس : **« إنما النسيء زيادة فى الكفر ، يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله »** [٢] . أما بعد : أيها الناس ، فإن لكم على نسائكم حقاً ولهن عليكم حقاً لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً غيركم تكرهونه ، وعليهن ألا

---

(١) لا تظلمون ولا تظلمون : الأولى بفتح التاء وكسر اللام والثانية بضم التاء وفتح اللام . .

(٢) التوبة : ٣٧ .

يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وأن تضربوهن ضرباً غير مبرح ، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف .

أيها الناس ؛ استوصوا بالنساء خيراً ، فإنهن عندكم عوان[١] لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، فاعقلوا - أيها الناس - قولى ، فإنى بلغت ، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا : كتاب الله وسنة رسوله .

أيها الناس : اسمعوا قولى واعقلوه : تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين إخوة ، فلا يحل لامرىء مال أخيه إلا مالاً أعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلمن أنفسكم ، اللهم هل بلغت » ؟ فأجاب الناس من كل صوب : نعم . فقال : اللهم اشهد ، ونزل عن ناقته . هذه الخطبة جمعت أصولا قد تبدو الآن معترفاً بها ، مجمعاً عليها ، ولكن الذين درسوا حالة المجتمع العربى وقت إلقائها ، بل حالة المجتمع الإنسانى ، يعرفون أنها كانت أساساً جديداً لأكبر انقلاب اجتماعى منذ ظهوره صلى الله عليه وسلم ، ويلحظون إحاطتها على قصرها بالداء والدواء ، وأن فيها أسس الحضارة التى جعلت من العرب الضلال أمة تسوس المشرق والمغرب قروناً كثيرة . وها هى ذى الأيام تمر فتبلى كل جديد ، وفصاحة محمد صلى الله عليه وسلم وبلاغته لا تزال نضرة عذبة ، يبتهج بها المتطلع إلى الأدب والعلم ، ويجد فيها الأديب رياً وشفاء .

* * *

• **زاد الدعاة :**

وهذه نماذج للقراءة والتدبر ، لا للحفظ والإلقاء قصدت من سوقها إثارة ما فى النفوس من مشاعر الخير والصدق . فإن الكلمات العامرة

(١) جمع عانية ، أى أسيرات ، شبههن بالأسيرات لضعفهن .

باليقين ، الحافلة بالإخلاص ، الصائبة فى تصوير جوانب الحياة ، الراشدة فى إيضاح قضاياها ، لها أثر ساحر فى إحياء القلوب ، وإيقاظ الهمم ، وإطلاق العواطف الحبيسة وراء الهموم الصغار والأغراض التوافه .

وقد ارتأيت فى ترتيب هذه النماذج أن تكون منوعة النزعات ، متوازنة الفكرة والوجهة ، فلا ينجذب القارىء مع مناجاة خاشعة إلا شدته خطبة مهتاجة ، ولا يغض سورة الحياة إلا ارتد إليها فى صراع مع هذه الدنيا . ولا يهتم فى طلب الآخرة إلا أبصر قصده مع هذه الدنيا .

والحق أن التدين الصحيح هو الذى يستكمل فى طبيعته عناصر الكمال فى المعاش والمعاد جميعا ، وتلتقى فيه شعب الإيمان كلها . فلا يطغى جانب على جانب . ولا يتضح معنى ويغيم آخر . ونريد من الداعية إلى الله - إذا عاش حيناً بين أفكار الرجال وكلماتهم - أن يقتبس منها ما يؤكد فى نفسه هذه الحقيقة . أى أنه ينتفع بها فى زيادة تفهمه لدينه وإفهامه للآخرين .

ثم ليجعل من هذه الكلمات بذوراً تلقى فى نفسه كما تلقى الحبوب فى الأرض الخصبة لتخرج بعد حين . وقد زادت أضعافاً مضاعفة . ثم إن مستويات البلاغة فى هذه النقول تتبع العصور التى قيلت فيها . وأذواق الناس تختلف فى تقدير ما احتوته من جمال فنى . وأعتقد أن بساطة الأداء الظاهرة فى صدر الإسلام . أفضل من ضروب الأناقة التى التزمت فى العصور الوسيطة .

وأحسب أن عصرنا الحاضر أخذ يقترب فى تعبيره من طابع الصدر الأول . وليس يهمنا ما ينتمى إليه الكلام من طبقات البلاغة ، إنما يهمنا ما أودع فيه من روح الإيمان وقوة الشعور وأصالة المعنى . فذلك هو الزاد الذى تربو به ثروة الداعية ، ويقتدر به على توجيه الناس .

* * *

● **وصية أبى بكر الصديق لعمر الفاروق :**

« إنى مستخلفك من بعدى وموصيك بتقوى الله . إن لله عملا بالليل لا يقبله بالنهار وعملا بالنهار لا يقبله بالليل . وإنه لا تقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة . واعلم أنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق فى الدنيا وثقله عليهم . وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلا . وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفاً .

إن الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم ، فإذا ذكرتهم قلت : إنى أخاف ألا أكون من هؤلاء . وذكر أهل النار فذكرهم بأسوأ أعمالهم ، ولم يذكر حسناتهم ، فإذا ذكرتهم قلت : إنى لأرجو ألا أكون من هؤلاء . وذكر آية الرحمة مع آية العذاب ليكون العبد راغباً راهباً ، ولا يتمنى على الله غير الحق ، ولا يلقى بيده إلى التهلكة . فإذا حفظت وصيتى فلا يكن غائب أحب إليك من الموت ـ وهو آتيك ـ وإن ضيعت وصيتى فلا يكن غائب أبغض إليك من الموت ولست بمعجز الله » .



● **من خطب أبى بكر :**

خطب رضى الله عنه عند توليه الخلافة فقال ـ بعد أن حمد الله وأثنى عليه ـ : « أيها الناس . . إنى وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن رأيتمونى على حق فأعينونى ، وأن رأيتمونى على باطل فسددونى . أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لى عليكم ألا إن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ الحق منه ، وأضعفكم القوى حتى آخذ الحق له . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم » .

وقال مرة ـ بعد الحمد والثناء ـ : إن أشقى الناس فى الدنيا والآخرة هم

الملوك !! فرفع الناس رءوسهم - تعجباً - فقال : أيها الناس : إنكم لطعانون عجلون . إن من الملوك من إذا ملك زهده الله فيما بيده ، ورغبه فيما بيد غيره ، وانتقصه شطر أجله ، وأشرب قلبه الإشفاق[1] فهو يحسد على القليل ويسخط على الكثير ، ويسأم الرخاء . . . لا يستجلي العبرة ولا يسكن إلى الثقة ، فهو كالدرهم القسي[2] أو الشراب الخادع جذل الظاهر ، حزين الباطن ، فإذا وجبت نفسه[3] ونضب عمره وضحا ظله[4] ، حاسبه الله فأشد حسابه وأقل عفوه[5] .

إلا وإن الفقراء - يعني القانعين - هم المرحومون . ألا وإن خير الملوك من آمن بالله ، وحكم بكتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم . وإنكم اليوم على خلافة نبوة ومفرق حجة وسترون بعدي ملكا عضوضاً ، وملكا غيدا ، وأمة شعاعا ، ودما مباحا . فإن كانت للباطل نزوة ، ولأهل الحق كبوة يعفو[6] بها الأثر ويموت لها البشر ، فالزموا المساجد واستشيروا القرآن واعتصموا بالطاعة ، وليكن الإبرام بعد التشاور ، والصفقة بعد طول التناظر » .



وخطب مرة أخرى فقال : « أوصيكم بتقوى الله ، وأن تثنوا عليه بما هو أهله ، وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة . وتجمعوا الإلحاف بالمسألة فإن الله أثنى على زكريا وعلى أهل بيته فقال « إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا ، وكانوا لنا خاشعين »[7] . ثم اعلموا عباد الله أن الله ارتهن بحقه أنفسكم ، وأخذ على ذلك مواثيقكم وعوضكم بالقليل الفاني الكثير الباقي .

---

(١) الخوف .
(٢) الزائف الرديء .
(٣) حل أجله .
(٤) زال فلا ظل له على الأرض .
(٥) شدد ، وقلل .
(٦) يمحى .
(٧) الأنبياء : ٩٠ .

وهذا كتاب الله فيكم لا تفنى عجائبه ولا يطفأ نوره ، فثقوا بقوله ، وانتصروا لكتابه واستبصروا فيه ليوم الظلمة ، فإنه خلقكم لعبادته ، ووكل بكم الكرام الكاتبين يعلمون ما تفعلون . ثم اعلموا عباد الله أنكم تغدون وتروحون فى أجل قد غيب عنكم علمه فإن استطعتم ألا تنقضى الأجال إلا وأنتم فى عمل لله فافعلوا ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله .

فسابقوا فى مهل بأعمالكم قبل أن تنقضى آجالكم ، فتردكم إلى سوء أعمالكم فإن أقواماً جعلوا آجالهم لغيرهم ، ونسوا أنفسهم ، فأنهاكم أن تكونوا أمثالهم . فالوحا الوحا[1] والنجاء النجاء ، فإن وراءكم طالبا حثيثا مره سريعاً سيره » .

● من خطب عمر :

« الحمد لله الذى أعزنا وأكرمنا بالإيمان ورحمنا بنبيه صلى الله عليه وسلم ، فهدانا من الضلالة وجمعنا من الشتات وألف بين قلوبنا ونصرنا على عدونا ومكن لنا فى البلاد وجعلنا به إخوانا متحابين . فاحمدوا الله على هذه النعمة واسألوه المزيد فيها والشكر عليها فإن الله قد صدقكم الوعد بالنصر على من خالفكم .

وإياكم والعمل بالمعاصى وكفر النعمة فقلما كفر قوم بنعمة ولم يفزعوا إلى التوبة إلا سلبوا عزهم وسلط عليهم عدوهم . أيها الناس : إن الله أعز دعوة هذه الأمة ، وجمع كلمتها ، وأظهر فلجها ، ونصرها وشرفها ، فاحمدوه عباد الله على نعمه ، واشكروه على آلائه ، جعلنا الله وإياكم من الشاكرين » .



---

(١) البدار البدار .

وخطب مرة أخرى فقال : « أيها الناس . . إنه قد أتى على زمان وأنا أرى قراء القرآن إنما يريدون به الله عز وجل وما عنده . ألا وإنه قد خيل إلى أن قوما مرائين يريدون به الناس والدنيا . ألا فأريدوا الله بأعمالكم . ألا إنما كنا نعرفكم إذ يتنزل الوحى ، وإذ رسول الله بين أظهرنا ينبئنا من أخباركم ، فقد انقطع الوحى وذهب النبى فإنما نعرفكم بما أقول لكم . .

ألا من رأينا منه خيرا ظننا به خيراً وأحببناه عليه . ومن رأينا منه شرا ظننا به شراً وأبغضناه عليه . . سرائركم بينكم وبين ربكم . ألا وإنى إنما أبعث عمالى ليعلموكم دينكم وسنتكم . ولا أبعثهم ليضربوا ظهوركم ويأخذوا أموالكم فوالذى نفسى بيده لأقصنكم منهم . فقام عمرو ابن العاص فقال : يا أمير المؤمنين . أرأيت أن بعثت عاملا من عمالك فأدب رجلا من رعيتك أتقصه منه ؟ قال : نعم . والذى نفس عمر بيده لأقصنه . فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه » .

* * *

● من آخر ما قال عمر :

قال ابن عباس : دخلت على عمر فى أيام طعنته . وهو مضطجع على وسادة من أدم . . وعنده جماعة من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم . . فقال له رجل : ليس عليك بأس .

قال : لئن لم يكن على اليوم ليكونن بعد اليوم . وإن للحياة لنصيبا من القلب وإن للموت لكربة ، وقد كنت أحب أن أنجى بنفسى وأنجو منكم ، وما كنت من أمركم إلا كالغريق يرى الحياة يرجوها ، ويخشى أن يموت دونها ، فهو يركض بيديه ورجليه ، وأشد من الغريق الذى يرى الجنة والنار وهو مشغول ، ولقد تركت زهرتكم كما هى ، ما لبستها فأخلقتها . . وثمرتكم يانعة فى أكمامها ما أكلتها . . وما جنيت ما جنيت

إلا لكم ، وما تركت ورائى درهما ماعدا ثلاثين أو أربعين درهما .

ثم بكى ، وبكى الناس معه . فقلت : يا أمير المؤمنين أبشر ، فوالله لقد مات رسول الله وهو عنك راض ، ومات أبو بكر وهو عنك راض ، وإن المسلمين راضون عنك . . قال : المغرور والله من غررتموه ، أما والله لو أن لى ما بين المشرق والمغرب لافتديت به من هول المطلع .

* * *

● من عمر الى أبى موسى :

كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى : « أما بعد . . فإن الناس نفرة عن سلطانهم ، فأعوذ بالله ، أن تدركنى وإياك عمياء مجهولة ، وضغائن محمولة ، وأهواء متبعة ، ودنيا مؤثرة . أقم الحدود ولو ساعة من النهار ، وإذا عرض لك أمران : أحدهما لله والآخر للدنيا ، فآثر نصيبك من الآخرة على نصيبك من الدنيا ، فإن الدنيا تنفد ، والآخرة تبقى ، وكن من خشية الله على وجل ، وأخف الفساق ، واجعلهم يدا يدا ، ورجلا رجلا .

واستدم النعمة بالشكر ، والطاعة بالتألف ، والمغفرة والنصرة بالتواضع والمحبة للناس . وعد مرضى المسلمين واشهد جنائزهم ، وباشر أمورهم ، وافتح بابك لهم ، فإنما أنت رجل منهم غير أن الله جعلك أثقلهم حملا . وقد بلغ أمير المؤمنين أنه فشت لك ولأهل بيتك هيئة فى لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلها : فإياك يا عبدالله أن تكون كالبهيمة همها فى السمن . . والسمن حتفها . واعلم أن العامل إذا زاغ زاغت رعيته ، وأشقى الناس من يشقى به الناس ، والسلام » .

* * *

● وصية عمر للخليفة من بعده :

أوصى عمر الخليفة من بعده فقال : « أوصيك بتقوى الله لا شريك له . وأوصيك بالمهاجرين الأولين خيرا وأن تعرف لهم سابقاتهم . وأوصيك بالأنصار خيرا ، فاقبل من محسنهم وتجاوز عن مسيئهم . وأوصيك بأهل الأمصار خيرا فإنهم درء العدو ، جباة الفيء . لا تحمل فيأهم إلا عن فضل منهم .

وأوصيك بأهل البادية خيرا ، فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام . أن تأخذ من حواشي أموال أغنيائهم فتردها على فقرائهم . وأوصيك بأهل الذمة خيرا أن تقاتل من ورائهم ولا تكلفهم فوق طاقتهم إذا أدوا ما عليهم للمؤمنين طوعا أو عن يد وهم صاغرون . وأوصيك بتقوى الله وشدة الحذر منه مخافة مقته أن يطلع منك على ريبة .

وأوصيك أن تخشى الله فى الناس ، وألا تخشى الناس فى الله . وأوصيك بالعدل فى الرعية ، والتفرغ لحوائجهم وثغورهم ، ولا تؤثر غنيهم على فقيرهم ، فإن ذلك بإذن الله سلامة لقلبك ، وحط لوزرك ، وخير فى عاقبة أمرك حتى تفضى من ذلك إلى من يعرف سريرتك ويحول بينك وبين قلبك . وآمرك أن تشتد فى أمر الله وفى حدوده ومعاصيه على قريب الناس وبعيدهم . ثم لا تأخذك فى أحد رأفة حتى تنهك منه مثل ما انتهك من حرمة الله .

واجعل الناس عندك سواء : لا تبال على من وجب الحق ثم لا تأخذك فى الله لومة لائم . وإياك والأثرة والمحاباة فيما ولاك الله مما أفاء الله على المؤمنين فتجور وتظلم بل تحرم نفسك من ذلك مما قد وسعه الله عليك ، وقد أصبحت بمنزلة من منازل الدنيا والآخرة ، فإن اقترفت لدنياك عدلا وعفة عما بسط الله لك اقترفت به إيمانا ورضوانا ، وإن غلب عليك الهوى اقترفت به سخط الله .

وأوصيك ألا ترخص لنفسك ، ولا لغيرك فى ظلم أهل الذمة . ولقد أوصيتك وحضضتك ونصحتك ، فابتغ بذلك وجه الله والدار الآخرة ، واخترت من دلالتك ما كنت دالا عليه نفسى وولدى ، فإن عملت بالذى وعظتك وانتهيت إلى الذى أمرتك أخذت به نصيبا وافرا ، وحظا وافيا ، وإن لم تفعل ذلك ولم يهمك ، ولم تنزل معاظم الأمور عند الذى يرضى الله به عنك يكن ذلك بك انتقاما ورأيك فيه مدخولا لأن الأهواء مشتركة ورأس كل خطيئة إبليس ، وهو داع إلى كل هلكة ، وقد أضل القرون السالفة قبلك ، فأوردهم النار ولبئس الثمن أن يكون حظ امرىء موالاة عدو الله الداعى إلى معاصيه .

ثم اركب الحق وخض إليه الغمرات وكن واعظا لنفسك . أنشدك الله لما ترحمت على جماعة المسلمين ، فأجللت كبيرهم ، ورحمت صغيرهم ، ووقرت عالمهم ولا تضربهم فيذلوا ، ولا تستأثر عليهم بالفىء فتغضبهم ، ولا تحرمهم عطاياهم عند محلها فتفقرهم ولا تجمرهم[١] فى البعوث فتقطع نسلهم ، ولا تجعل المال دولة بين الأغنياء منهم . ولا تغلق بابك دونهم . فيأكل قويهم ضعيفهم . هذه وصيتى إياك . وأشهد الله عليك .. وأقرأ عليك السلام » .

* * *

● لعثمان رضى الله عنه :

لما بويع عثمان رضى الله عنه خرج إلى الناس فخطبهم . فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أيها الناس .. أول كل مركب صعب . وإن بعد اليوم أياما ، وإن أعش تأتكم الخطب على وجهها . وما كنا خطباء . وسيعلمنا الله .. » .

---

(١) البعوث : هى الجيوش التى يبعثها الإمام إلى أرض العدو أو عند الثغور ، وتجميرهم : تركهم هناك بحيث لا يعودون إلى ديارهم وأهليهم .

ومن خطبة له قال : « أيها الناس . . اتقوا الله فإن تقوى الله غنم . وإن أكيس الناس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت واكتسب من نور الله نورا لظلمة القبر ، وليخش عبد أن يحشره الله أعمى وقد كان بصيرا . وقد يلقى الحكيم جوامع الكلم . ولكن الأصم ينادى من مكان بعيد . واعلموا أن من كان الله له لم يخف شيئا . ومن كان الله عليه فمن يرجوه بعده » ؟

وقال فى خطبة له : « ابن آدم . . اعلم أن ملك الموت الذى وكل بك لم يزل يخلفك ويتخطى إلى غيرك منذ أنت فى الدنيا . وكأنه قد تخطى غيرك إليك وقصدك ، فخذ حذرك ، واستعد له . ولا تغفل فإنه لا يغفل عنك . واعلم ابن آدم أنك إن غفلت عن نفسك ولم تستعد لها لم يستعد لها غيرك . ولابد من لقاء الله فخذ لنفسك ولا تكلها إلى غيرك والسلام » .

* * *

وآخر خطبة خطبها عثمان قال : « إن الله إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة ، ولم يعطكموها لتركنوا إليها . إن الدنيا تفنى والآخرة تبقى ، لا تبطرنكم الفانية ولا تشغلنكم عن الباقية وآثروا ما يبقى على ما يفنى ، فإن الدنيا منقطعة وإن المصير إلى الله .

اتقوا الله فإن تقواه جنة من بأسه ، ووسيلة عنده ، واحذروا من الله الغير[1] . والزموا جماعتكم ولا تصيروا أحزابا « **واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون . ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون** »[2] .

(١) الغير : تغير الحال ، وانتقالها إلى الفساد . (٢) آل عمران : ١٠٣، ١٠٤

● الإمام علي : « الناس والعلم »

قال كميل بن زياد النخعي : أخذ علي بن أبي طالب رضي الله عنه يدي ، فأخرجني ناحية الجبانة فلما أصحر[١] جعل يتنفس ، ثم قال : يا كميل بن زياد : القلوب أوعية ، فخيرها أوعاها ، احفظ عني ما أقول لك :

الناس ثلاثة : فعالم رباني ، ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع ، أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح ، لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجأوا إلى ركن وثيق . العلم خير من المال : العلم يحرسك وأنت تحرس المال . العلم يزكو على الإنفاق ، والمال تنقصه النفقة . العلم حاكم ، والمال محكوم عليه . ومحبة العلم دين يدان به . العلم يكسب العالم الطاعة في حياته ، وجميل الأحدوثة بعد وفاته ، وصنيعة المال تزول بزواله . مات خزان الأموال وهم أحياء ، والعلماء باقون على الدهر ، أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم في القلوب موجودة .

هاه هاه ، وإن ههنا علماً ـ وأشار إلى صدره ـ لو أصبت له حملة ! بل أصبت له لقناً[٢] غير مأمون عليه ، يستعمل آلة الدين للدنيا ، يستظهر بحجج الله على كتابه ، وبنعمه على عباده . أو منقاداً لأجل الحق لا بصيرة له في أحنائه[٣] ، ينقدح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة ، لا ذا ولا ذاك . أو منهوماً باللذات ، سلس القيادة للشهوات . أو مغرى بجمع الأموال والادخار . ليسوا من دعاة الدين ، أقرب شبهاً بهم الأنعام السائمة . لذلك يموت العلم بموت حامليه .

اللهم بلى ، لن تخلو الأرض من قائم لله بحجته ، لكي لا تبطل حجج

---

(١) أصحر : أي بلغ الصحراء ودخلها .

(٢) ذكيا فطناً .

(٣) نواحيه وجوانبه .

الله وبيناته . . أولئك الأقلون عدداً ، الأعظمون عند الله قدراً ، بهم يدفع الله عن حججه ، حتى يؤدوها إلى نظرائهم ، ويزرعوها فى قلوب أشباههم ، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فاستلانوا ما استرعوا منه المترفون ، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون ، صحبوا الدنيا بأبدان ، أرواحها معلقة بالملأ الأعلى . أولئك خلفاء لله فى أرضه ، ودعاته إلى دينه . هاه هاه ، شوقاً إلى رؤيتهم ، وأستغفر الله لى ولك . إذا شئت فقم . . . !!!

* * *

● **بادروا بالعمل :**

أما بعد . . فإن الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع ، وإن الآخرة قد اقتربت وأشرفت باطلاع . ألا وإن المضمار اليوم والسباق غداً . . أفلا تائب من خطيئته قبل منيته ؟! ألا عامل لنفسه قبل يوم بؤسه ؟ ألا وإنكم فى أيام أمل من ورائه أجل ، فمن أخلص فى أيام أمله ، قبل حضور أجله ، فقد نفعه عمله ، ولم يضره أجله ، ومن قصر فى أيام أمله قبل أجله فقد خسر عمله وخنره أجله .

ألا فاعملوا لله فى الرغبة كما تعملون له فى الرهبة . ألا وإنى لم أر كالجنة نام طالبها ، ولا كالنار نام هاربها . ألا وإنه من لم ينفعه الحق يضره الباطل . ومن لم يستقم به الهدى يجر به الضلال إلى الردى . . . ألا وإنكم قد أمرتم بالظعن ودللتم على الزاد . وإن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل فتزودوا فى الدنيا ما تحرزون به أنفسكم غداً . .

* * *

● **المرء فى الدنيا :**

إنما المرء فى الدنيا غرض تنتضل فيه المنايا . ونهب للمصائب . وفى كل أكلة غصص ، ومع كل جرعة شرق . ولا ينال العبد فيها نعمة إلا بفراق

أخرى ، ولا يستقبل يوماً من عمره إلا بهدم آخر من أجله . فنحن أعوان الحتوف ، وأنفسنا تسوقنا إلى الفناء . فمن أين نرجو البقاء ؟ وهذان الليل والنهار لم يرفعا من شيء شرفاً إلا أسرعا الكرة في هدم ما بنياه وتفريق ما جمعاه . . . !!! فاطلبوا الخير وأهله . واعلموا أن خيراً من الخير معطيه ، وشراً من الشر فاعله .

* * *

● **لا تذموا الدنيا :**

ذم رجل الدنيا عند على بن أبي طالب رضى الله تعالى عنه فقال على : الدنيا دار صدق لمن صدقها ، ودار نجاة لمن فهم عنها . ودار غنى لمن تزود منها ، ومهبط وحى الله ، ومصلى ملائكته . ومسجد أنبيائه . ومتجر أوليائه ربحوا فيها الرحمة ، واكتسبوا فيها الجنة . فمن ذا الذى يذمها ؟ وقد آذنت ببينها . ونادت بفراقها وشبهت بسرورها السرور . وببلائها البلاء ترغيبا وترهيباً !

فيا أيها الذام للدنيا المعلل نفسه متى خدعتك الدنيا ؟أم متى استذمت إليك . أبمصارع آبائك فى البلى ؟ أم بمضاجع أمهاتك فى الثرى ؟ كم مرضت بيديك ؟ وكم عللت بكفيك ؟ تطلب له الشفاء ، وتستوصف له الأطباء ، غداة لا يغنى عنه دواؤك ولا ينفعه بكاؤك .

* * *

● **قل من حرم زينة الله :**

مرض الربيع بن زياد الحارثى ، فذهب أمير المؤمنين على بن أبي طالب يعوده ، فكان فيما قال له الربيع : يا أمير المؤمنين . . ألا أشكو إليك عاصم بن زياد ؟ قال : وما له ؟ . قال : لبس العباءة ، وترك الملاءة ، وغم أهله ، وأحزن ولده . فقال : على عاصياً . . فلما أتاه عبس فى وجهه ، وقال : ويلك يا عاصم . أترى الله أباح لك اللذات ، وهو يكره

أخذك منها ؟! . لأنت أهون على الله من ذلك .

أما ما سمعته يقول : « مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان »[١] ثم قال : « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان »[٢] ، وقوله : « ومن كل تأكلون لحماً طريا وتستخرجون حلية تلبسونها »[٣] . أما والله فإن ابتذال نعم الله بالفعال أحب إليه من إبتذالها بالمقال وقد سمعته عز وجل يقول : « وأما بنعمة ربك فحدث »[٤] . ويقول : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق »[٥] .

وإن الله عز وجل خاطب المؤمنين بما خاطب به المرسلين فقال :
« يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم »[٦] وقال « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً ، أنى بما تعملون عليم »[٧] . فقال عاصم : فعلام اقتصرت أنت يا أمير المؤمنين على لبس الخشن ، وأكل الجشب[٨] ؟ قال : إن الله افترض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بالعوام لئلا يشنع على الفقير فقره . . . قال : فما برح لبس الملاء ، ونبذ العباء .

* * *

● **الله** :

قال فى خطبة له يثنى على الله : « هو أول كل شىء ووليه ، وكل شىء خاشع له ، وكل شىء قائم به ، وكل شىء ضارع إليه ، وكل شىء مستكين له . خشعت له الأصوات ، وكلت دونه الصفات ، وضلت دونه

---

(١) الرحمن : ١٩ ، ٢٠ .
(٢) الرحمن : ٢٢ .
(٣) فاطر : ١٢ .
(٤) الضحى : ١١ .
(٥) الأعراف : ٣٢ .
(٦) البقرة : ١٧٢ .
(٧) المؤمنون : ٥١ .
(٨) الطعام الردىء .

الأوهام ، وحارت دونه الأحلام ، وانحسرت دونه الأبصار . لا يقضى فى الأمور غيره ، ولا يتم شىء منها دونه .

سبحانه ما أجل شأنه ، وأعظم سلطانه ، تسبح له السماوات العلا ، ومن فى الأرض السفلى ، له التسبيح والعظمة . والملك والقدرة ، والحول والقوة . يقضى بعلم ، ويعفو بحلم . قوة كل ضعيف ، ومفزع كل ملهوف ، وعز كل ذليل ، وولى كل نعمة ، وصاحب كل حسنة ، وكاشف كل كربة . المطلع على كل خفية ، المحصى كل سريرة ، يعلم ما تكن الصدور ، وما ترخى عليه الستور . الرحيم بخلقه ، الرؤوف بعباده ، من تكلم منهم سمع كلامه ، ومن سكت منهم علم ما فى نفسه ، ومن عاش منهم فعليه رزقه . ومن مات فإليه مصيره ، أحاط بكل شىء حفظه .

اللهم لك الحمد عدد ما تحيى وتميت ، وعدد أنفاس خلقك ولفظهم ولحظ أبصارهم وعدد ما تجرى به الريح ، وتحمله السحاب ، ويختلف به الليل والنهار ، وتشرق عليه الشمس والقمر والنجوم ، حمداً لا ينقضى عدده ولا يفنى مدده . اللهم أنت قبل كل شىء ، وإليك مصير كل شىء ، وتكون بعد هلاك كل شىء ، وتبقى ويفنى كل شىء ، وأنت وارث كل شىء ، أحاط علمك بكل شىء ، وليس يعجزك شىء ولا يتوارى عنك شىء . ولا يقدر أحد قدرك . ولا يشكرك أحد حق شكرك . ولا تهتدى العقول لصفتك ولا تبلغ الأوهام حدك .

حارت الأبصار دون النظر إليك فلم ترك عين فتخبر عنك : كيف أنت ؟ وكيف كنت ؟ . لا نعلم اللهم كيف عظمتك غير أنا نعلم أنك حى قيوم لا تأخذك سنة ولا نوم ، لم ينته إليك نظر . ولم يدركك بصر . ولا يقدر قدرتك ملك ولا بشر . أدركت الأبصار . وكتبت الآجال . وأحصيت الأعمال . وأخذت بالنواصى والأقدام . لم تخلق الخلق لحاجة ولا وحشة ، ملأت كل شىء عظمة فلا يرد ما أردت ولا يعطى ما منعت ،

ولا ينقص سلطانك من عصاك ، ولا يزيد فى خلقك من أطاعك .

كل سر عندك علمه . وكل عيب عندك شاهده فلم يستتر عنك شىء ولم يشغلك شىء عن شىء . وقدرتك على ما تقضى كقدرتك على ما قضيت . وقدرتك على القوى كقدرتك على الضعيف . وقدرتك على الأحياء كقدرتك على الأموات . فإليك المنتهى وأنت الموعد . لا منجى منك . إلا إليك بيدك ناصية كل دابة . وبإذنك تسقط كل ورقة ولا يعزب عنك مثقال ذرة » .

* * *

● **طلب التوبة** [١] :

اللهم أنه يحجبنى عن مسألتك خلال ثلاث ، وتحدونى عليها خلة واحدة :

١ ـ يحجبنى أمر أمرت به فابطأت عنه .
٢ ـ ونهى نهيتنى عنه فأسرعت إليه .
٣ ـ ونعمة أنعمت بها فقصرت فى شكرها .

ويحدونى على مسألتك تفضلك على من أقبل بوجهه إليك . ووفد بحسن ظنه إليك . إذ جميع إحسانك تفضل . وإذ كل نعمك ابتداء . فها أنا ذا يا إلهى واقف بباب عزك وقوف المستسلم الذليل وسائلك على الحياء منى سؤال البائس المعيل . مقر لك بأنى لم أستسلم وقت إحسانك إلا بالإقلاع عن عصيانك . ولم أخل فى الحالات كلها من امتنانك .

فهل ينفعنى ـ يا إلهى ـ إقرارى عندك بسوء ما اكتسبت ؟ وهل ينجينى منك اعترافى لك بقبح ما ارتكبت ؟ أم أوجبت لى فى مقامى هذا سخطك ، أم لزمنى فى وقت دعائى مقتك . سبحانك . لا أيأس منك

(١) للإمام « زين العابدين على بن الحسين » رضى الله عنهما .

وقد فتحت لى باب التوبة إليك .

بل أقول مقال العبد الذليل الظالم لنفسه المستخف بحرمة ربه الذى عظمت ذنوبه فجلت ، وأدبرت أيامه ، حتى إذا رأى مدة العمل قد انقضت ، وغاية العمر قد انتهت ، وأيقن أنه لا محيص له منك ، ولا مهرب له عنك ، تلقاك بالإنابة ، وأخلص لك التوبة ، فقام إليك بقلب طاهر نقى ، ثم دعاك بصوت حائل خفى . قد تطأطأ لك فانحنى . ونكس رأسه فانثنى .

قد أرعشت خشيته رجليه ، وغرقت دموعه خديه . يدعوك بـ « يا أرحم الراحمين ، ويا أرحم من أناب إليه المنيبون ، وانتابه المسترحمون ، ويا أعطف من أطاف به المستغفرون ، ويا من عفوه أكثر من نقمته ، ويا من رضاه أوفر من سخطه ، يا من تحمد إلى خلقه بحسن التجاوز ، ويا من عود عباده قبول الإنابة ، ويا من استصلح فاسدهم بالتوبة ، ويا من رضى من فعلهم باليسير ، ويا من كافأ قليلهم بالكثير ، ويا من ضمن لهم إجابة الدعاء ، ويا من وعدهم على نفسه بتفضله حسن الجزاء .

ما أنا بأعصى من عصاك فغفرت له .
وما أنا بألوم من اعتذر إليك فقبلت منه .
وما أنا بأظلم من تاب إليك فعدت عليه .

أتوب إليك فى مقامى هذا ، توبة نادم على ما فرط منه ، مشفق مما اجتمع عليه ، خالص الحياء مما وقع فيه ، عالم بأن العفو عن الذنب العظيم لا يتعاظمك ، وأن التجاوز عن الإثم الجليل لا يستعصبك ، وأن احتمال الجنايات الفاحشة لا يتكاءك ، وأن أحب عبادك إليك من ترك الاستكبار عليك ، وجانب الإصرار ، ولزم الاستغفار .

وأنا أبرأ إليك من أن استكبر .

وأعوذ بك من أن أصر .
وأستغفرك لما قصرت فيه .
وأستعين بك على ما عجزت عنه .

اللهم صل على محمد وآله ، وهب لى ما يجب على لك ، وعافنى مما أستوجبه منك ، وأجرنى مما يخافه أهل الإساءة . فإنك ملىء بالعفو ، مرجو للمغفرة ، معروف بالتجاوز . ليس لحاجتى مطلب سواك . ولا لذنبى غافر غيرك حاشاك . ولا أخاف على نفسى إلا إياك . إنك أهل التقوى وأهل المغفرة . صل على محمد وآل محمد ، واقض حاجتى ، وأنجح طلبتى ، واغفر ذنبى وآمن خوف نفسى . إنك على كل شىء قدير ، وذلك عليك يسير . آمين يارب العالمين .

* * *

● **وله رضى الله عنه فى التضرع :**

اللهم يا من برحمته يستغيث المذنبون . ويا من إلى ذكر إحسانه يفزع المضطرون ، ويا من لخيفته ينتحب الخاطئون ، يا أنس كل مستوحش غريب ، ويا فرج كل مكروب كئيب ، ويا غوث كل مخذول فريد ، ويا عضد كل محتاج طريد .

أنت الذى وسعت كل شىء رحمة وعلماً .
وأنت الذى جعلت لكل مخلوق فى نعمك سهماً .
وأنت الذى عفوه أعلى من عقابه .
وأنت الذى تسعى رحمته أمام غضبه .
وأنت الذى عطاؤه أكثر من منعه .
وأنت الذى اتسع الخلائق كلهم فى وسعه .
وأنت الذى لا يرغب فى جزاء من أعطاه .
وأنت الذى لا يفرط فى عقاب من عصاه .

وأنا يا إلهى عبدك الذى أمرته بالدعاء فقال : لبيك وسعديك .
ها أنذا يارب مطروح بين يديك .
أنا الذى أوقرت الخطايا ظهره .
وأنا الذى أفنت الذنوب عمره .
وأنا الذى ـ بجهله ـ عصاك ، ولم تكن أهلا منه لذاك .
هل أنت ـ يا إلهى ـ راحم من دعاك فأبلغ فى الدعاء ؟

أم أنت غافر لمن بكاك فأسرع فى البكاء ؟
أم أنت متجاوز عمن عفر لك وجهه تذللا ؟
أم أنت مغنى من شكى إليك فقره توكلا ؟
إلهى لا تخيب من لا يجد معطياً غيرك ، ولا تخذل من لا يستغنى عنك بأحد دونك .
إلهى فصل على محمد وآله . ولا تعرض عنى . وقد أقبلت عليك . ولا تحرمنى . وقد رغبت إليك . ولا تجبهنى بالرد . وقد انتصبت بين يديك .

أنت الذى وصفت نفسك بالرحمة . فصل على محمد وآله . وارحمنى وأنت الذى سميت نفسك بالعفو فاعف عنى . قد ترى يا إلهى فيض دمعى من خيفتك . ووجيب قلبى من خشيتك . وانتفاض جوارحى من هيبتك . كل ذلك حياء منك لسوء عملى . ولذاك خمد صوتى عن الجأر إليك . وكل لسانى عن مناجاتك .

يا إلهى فلك الحمد . فكم من عائبة سترتها على فلم تفضحنى ؟ وكم من شائنة ألممت بها فلم تهتك عنى سترها ؟ ولم تقلدنى مكروه شنارها ، ولم تبد سوءاتها لمن يلتمس معائبى من جيرتى ، وحسدة نعمتك عندى . ثم لم ينهنى ذلك عن أن جريت إلى سوء ما عهدت منى . فمن أجهل منى ـ يا إلهى ـ برشده . ومن أغفل منى عن حظه ؟

ومن أبعد منى عن استصلاح نفسه ؟ حين أنفق ما أجريت على من رزقك فيما نهيتنى عنه من معصيتك ؟ ومن أبعد غوراً فى الباطل ؟ وأشد إقداماً على السوء منى حين أقف بين دعوتك ودعوة الشيطان . فأتبع دعوته على غير عمى منى فى معرفة به ، ولا نسيان من حفظى له ، وأنا حينئذ موقن بأن منتهى دعوتك إلى الجنة ، ومنتهى دعوته إلى النار ؟

سبحانك . ما أعجب ما أشهد به على نفسى ! وأعدده من مكتوم أمرى . وأعجب من ذلك ، أناتك عنى وإبطاؤك عن معاجلتى . وليس ذلك من كرمى عليك ، بل تأنياً منك لى ، وتفضلا منك على . لأن أرتدع عن معصيتك المسخطة . وأقلع عن سيئاتى المحلقة . ولأن عفوك عنى أحب إليك من عقوبتى .

بل أنا يا إلهى أكثر ذنوباً . وأقبح آثاراً ، وأشنع أفعالا وأشد فى الباطل تهوراً وأضعف عند طاعتك تيقظاً ، وأقل لوعيدك انتباهاً وارتقاباً من أن أحصى لك عيوبى ، أو أقدر على ذكر ذنوبى . وإنما أوبخ بهذا نفسى طمعا فى رأفتك التى بها صلاح أمر المذنبين ورجاء رحمتك التى بها فكاك رقاب الخاطئين . اللهم وهذه رقبتى قد أرقتها الذنوب فصل على محمد وآله وأعتقها بعفوك . وهذا ظهرى أثقلته الخطايا . فصل على محمد وآله وخفف عنه بمنك .

يا إلهى . . لو بكيت إليك حتى تسقط أشفار عينى ، وانتحبت حتى ينقطع صوتى ، وقمت لك حتى تنتشر قدماى ، وركعت حتى ينخلع صلبى ، وسجدت لك حتى تتفقأ حدقتاى ، وأكلت تراب الأرض طول عمرى ، وشربت ماء الرماد آخر دهرى ، وذكرتك فى خلال ذلك حتى يكل لسانى . ثم لم أرفع طرفى إلى آفاق السماء استحياء منك ، ما استوجبت بذلك محو سيئة واحدة من سيئاتى .

وإن كنت تغفر لى حين أستوجب مغفرتك .

وتعفو عني حين أستحق عفوك .
فإن ذلك غير واجب لى باستحقاق .
ولا أنا أهل له باستيجاب .
إذ كان جزائى منك فى أول ما عصيتك النار .
فإن تعذبني فأنت غير ظالم لى .
إلهي .. فإذ قد تغمدتني بسترك فلم تفضحني .
وتأنيتى بكرمك فلم تعاجلنى .
وحلمت عنى بتفضلك فلم تغير نعمتك على . ولم تكدر معروفك عندى .
فارحم طول تضرعى . وشدة مسكنتى ، وسوء موقفى .

اللهم صل على محمد وآله ، وقنى من المعاصى ، واستعملنى بالطاعة ، وارزقنى حسن الإنابة ، وطهرنى بالتوبة ، وأيدنى بالعصمة واستصلحنى بالعافية ، وأذقنى حلاوة المغفرة . واجعلنى طليق عفوك ، وعتيق رحمتك ، واكتب لى أمانا من سخطك ، وبشرنى بذلك فى العاجل دون الآجل بشرى أعرفها .

إن ذلك لا يضيق عليك فى وسعك ، ولا يتكاءدك فى قدرتك ولا يتصعدك فى أناتك ، ولا يئودك فى جزيل هباتك التى دلت عليها آياتك .
إنك تفعل ما تشاء ، وتحكم ما تريد ، إنك على كل شىء قدير .
آمين يارب العالمين ، وصلى الله على محمد وآله المطهرين .

* * *

● **أبو الكلام آزاد فى سجنه يتحدث عن الإسلام ويحارب الاستعمار**[1] ، وتظهر عظمة آزاد ، ويتجلى إيمانه الوثيق بالله ، وفهمه الصحيح

(١) عن ثقافة الهند .

للإسلام ، حين قدمه الإنجليز للمحاكمة بتهمة التحريض على الثورة ، وجمعوا لذلك أدلة الاتهام من خطبتين كان قد ألقاهما فى مدينة « كلكتا » يدعو المسلمين خاصة والهنود عامة إلى العصيان المدنى . كان ذلك فى أواخر سنة ١٩٢٣ ، و« آزاد » فى بقية من شباب يحرص المرء عليها أشد الحرص ، ويضن بها أن تذهب فى مجال الحياة الجافية المظلمة داخل السجون .

إن المرء فى هذه المرحلة من العمر يقف عادة وقفة المشفق على شبابه المتأهب للرحيل ، ووقفة الخائف من شبح الشيخوخة المقبلة . فهو من هذا ومن تلك مقبل على منفعته ، مشغول بنفسه . ولو وقف « آزاد » هذا الموقف قبل ذلك بسنوات ، لقلنا : إنها فورة الشباب وثورة الصبا . تدعوه إلى المغامرة وتحمله على التهور . ولو وقف « آزاد » هذا الموقف بعد ذلك بسنوات ، لقلنا : إنه يأس الشيخوخة ومرارة الهرم . حملته على أن يخرج من الحياة من هذا الباب فى صورة بطل من أبطال التاريخ .

ولكن شاء القدر أن يتخير لـ« آزاد » هذا الموقف بالذات ، فى الوقت الذى يقبل فيه وإحدى قدميه فى الدنيا الشباب والأخرى فى طريقها إلى عالم الهرم ، أراد القدر ذلك ليثبت فى سجل الإنسانية آية من آيات السمو البشرى ، ومثلا من أمثلة الإنسانية الرفيعة . فى الإيمان بالحق والقيام فى وجه الظالمين الطغاة . على حين اشتدت نوازع النفس وقويت رغبتها فى الحياة ، وفى وقت استغلظ فيه بأس الظالمين وجن جنونهم بالانتقام والتنكيل !

وهكذ التقى « آزاد » ـ وحيدا إلا من إيمانه ، أعزل إلا من روحه . التقى بالإمبراطورية الإنجليزية كلها ، بما كان لها إذ ذاك من قوة متحكمة فى العالم ، متسلطة على الشرق والغرب ، وما كان لها من رهبة مخيفة مفزعة تطوف على الناس بالاستكانة إليها واليأس من الخلاص منها .

التقى « آزاد » بهذه الإمبراطورية سجينا فى قفص الاتهام . يواجه قضاة لا يطمع منهم فى رحمة ، ولا ينتظر لديهم إلا ما ينتظر الحمل الوديع من مخالب الأسد ! وتدور المعركة فى ساحة المحكمة ، فيشهد التاريخ أعنف معركة وأعجبها .

يسجل فيها « آزاد » نصراً حاسماً للإنسانية ، به يتقرر مصيرها ، ويتحدد موقعها لأجيال عديدة مقبلة . وندع الموقف لآزاد يتلو علينا فيه من آياته ما تعنو له جباه الجبابرة وتستخذى له قوى البغى وأبالسة الشر فى كل مكان ، على قدر ما تشتد به عزائم الرجال وتقوى نفوس المؤمنين .

استقبل (آزاد) المحكمة ثابت الجأش ، ساكن النفس ، كأنما يسعى إلى موعد حبيب إليه . مألوف عنه ، وساد المحكمة سكون رهيب قطعه « آزاد » بقوله : « أيها القضاة ! إنى كنت عازما على ألا أقدم إلى المحكمة بياناً ما لأنها مكان لا رجاء لنا فيه ، ولا طلب منه ، ولا شكوى إليه ، وإنما هى كمنعرج الطريق إلى المنزل ، لابد من قطعه للسالك ، ولذا نقف فيه وقفة على كره منا ، وإلا لدخلنا السجن توا » .

فهو إنما يستعجل الطريق إلى السجن ، أو الموت . . لأن السجن أو الموت أحب إلى نفسه من أن يعيش طليقا فى وطن يتحكم فيه الظالمون ، ويستبد به الطغاة .

ثم يقول : « إنى إذ أتدبر التاريخ العظيم لهذا الموقف ، وأرانى قد شرفت بالوقوف فيه ، تسبح روحى بحمد الله ، ويلهج لسانى بشكره من غير قصد منى ، وهو وحده يعلم ما أجده من الفرح والابتهاج ، إذ أحسبنى فى هذا القفص محسودا للملوك والسلاطين العظام . . فأين لهم فى قصورهم المريحة ، تلك المسرة والراحة التى ترقص فى صدرى ؟ إنى أقول حقاً . . إنه لو أدركها الناس لتمنوا المثول فى هذا المكان ، ولنذروا النذور لأجله ! » .

ويقول : « إنى كنت عازماً على السكوت فى المحكمة ، ولكن لما أحضرت إليها ، ورأيت الحكومة تقدم إثبات جريمتى الخطبتين اللتين ألقيتا فى مجامع « كلكتا » وهما لا تحتويان على جميع الأمور التى مازلت أكررها فى جميع خطبى ورسائلى ومقالاتى والتى إن قدمت كانت أنفع لقصدها ، علمت أنها عاجزة حتى عن تهيئة المستند الذى يعتبر فى هذه الأيام كافيا لإنزال العقاب بى ، مع شدة رغبتها وحرصها على سجنى ، فغيرت قصدى وقلت : إن العلة التى كانت مانعة من الكلام أصبحت موجبة له . وأردت أن أثبت بلسانى الأمر الذى لا تستطيع الحكومة إثباته » .

أرأيتم متهما يقيم الدليل على تهمته ، ويمهد للقاضى سبيل الحكم عليه !؟ ولكن هكذا تكون مواقف الرجال فى ملاقاة الأهوال والمحن .

ثم يمضى « آزاد » يؤكد للمحكمة فى صراحة ثبوت التهمة الموجهة إليه فيقول : « إن كانت هذه التصريحات جناية فإنى معترف بأن قلبى قد اشتغل بها ولسانى نطق بها . وأنا الذى صرحت بها أمام عشرات الألوف من الناس . . بل إنى لأجدنى الآن مدفوعا إلى التصريح بها أمام المحكمة ، ولا أزال قائلا بها ما دام لسانى بين أسنانى ، وروحى فى جثمانى وإن لم أفعل ذلك أكن ظالما لنفسى ، عاصياً عند الله وعند الناس أجمعين » .

وهكذا يرى « آزاد » أن السكوت عن المنكر ظلم للنفس ، وعصيان لله وعقوق للإنسانية . . إنه مطالب أمام عقيدته الدينية وأمام ضميره الإنسانى أن يدفع هذا بكل ما يستطيع ، وما دامت القوة المادية غير مستطاعة له الآن فلا أقل من أن يعلن للظالمين بلسانه ، وأن يفضح آثامهم على أعين الناس !

ويصرخ « آزاد » فى وجه قضاته : « إنى مسلم ولأنى مسلم وجب على أن أندد بالاستبداد وأقبحه وأشهر بمساويه . إن الإسلام بمجرد ظهوره

أعلن أن الحق ليس للقوة ولا هو القوة . بل الحق هو الحق وأنه ليس لأحد من البشر أن يعبد عباد الله ويذلهم ويسخرهم . الناس كلهم متساوون فى الإنسانية ، متساوون فى الحق ، متساوون فى الحياة ، وليس اللون أو الجنس أو النسل معياراً للفضل والحسب ، وإنما معياره العمل وحده ، فأعلاهم قدرا ، وأكرمهم حسبا ، أحسنهم عملا ، وأتقاهم لله . . إن الإسلام أعلن حقوق الإنسان قبل انقلاب فرنسا بأحد عشر قرناً . . ولعمرى أن مطالبة المسلم بأن يسكت عن نصرة الحق ولا يسمى الظلم ظلماً مثل مطالبته بأن يتنازل عن حياته الإنسانية ، فإن كنتم لا ترون لأنفسكم أن تطالبوا أحداً بأن يرتد عن دينه فليس لكم أن تطالبوا مسلماً بأن يمتنع عن قوله للظالم : إنه ظالم » .

كذلك كان « آزاد » . . إنه لم يكن محترف سياسة ، يتحول به مع الأحوال ويتقلب مع مقتضيات الظروف ، ولكنه صاحب دين ، وليس لصاحب الدين أن يقبل المساومة فى دينه ، والتنازل عن شىء من عقيدته . . إنها كل لا يتجزأ . . فإما الحق . وإما الباطل . . وفى سبيل الحق يحتمل المسلم - فى إيمان وصبر - كل ما يعرض له من فتنة وبلاء .

ثم يقول « آزاد » : « الإسلام من أوله إلى آخره دعوة عامة إلى البسالة والجرأة والتضحية والاستهانة بالموت فى سبيل الحق . وقد ابيضت عين الدهر ولم تر مثل هذه التضحيات الكثيرة فى إعلان كلمة الحق التى قدمتها الأمة الإسلامية فى كل دور من حياتها . لا ! فلتعلم الحكومة الإنجليزية . أن المسلم الذى أمره ربه أن يرحب بالموت الأحمر ويتغلغل فى أعماق الدواهى والكوارث ولا يقبل السكوت عن الحق . لا يخيفه قانون العقوبات الاستعمارى ، ولا يرده عن دينه وأداء فريضته .

إنى أقول حقاً : إنه لا يؤلمنى أن أرى الحكومة عازمة على معاقبتى وأنها لا تحاكمنى إلا لكى تزجنى فى السجون ، إذ هذا أمر لابد منه وإنما الذى

يؤلمني فيفتت كبدى ، هو أن أرى الحالة تنقلب انقلاباً تاماً فبدلا من أن ينتظر من المسلم صدق اللهجة والقول الحق يطلب منه السكوت عنه وكتمان الشهادة ، وألا يقول للظالم : إنك ظالم ، لأن قانون المستعمرات يعاقب عليه » .

وفى ختام هذا المشهد الرائع العجيب ، يلتفت « آزاد » إلى أولئك الذين غرر بهم المستعمر من أبناء الهند ليقيموا الدليل على إدانته ، فيقيم لهم العذر ويطلب لهم المغفرة ويوجه إليهم الخطاب قائلا :

« أصحابى .. ثقوا بأنى لا أغضب منكم ولا أحقد عليكم بل لا أتهمكم بالكذب والزور على ، لأن كل ما قلتموه فى الشهادة حق وصدق ، ولكنى أراكم قد عصيتم الله بمساعدة الحكومة الإنجليزية فى استبدادها وظلمها ومحاربتها للإسلام والإنسانية ، إنى أعلم أن صوت الضمير يوبخكم فى أعماق سرائركم على ما تعملونه ، ولكنكم إنما اضطررتم إليه اضطراراً لأنكم لا تملكون ما تسدون به عوزكم وترزقون به أهليكم ، وليس فيكم قوة لتحمل البأساء والضراء فى سبيل الحق .. فلذا لا أحنق عليكم ، ولا أعذلكم بل أعفو عنكم ، وأستغفر الله لكم ... » .

إن « آزاد » يعرف الضعف الإنسانى الذى يتسلط على بعض الناس .. إنه لا يطلب من الحياة أن ترتفع بالناس جميعا إلى هذا المستوى الكريم الذى ارتفع إليه فى التضحية والاحتمال .. فهو يعذر ويغفر ، ومن ثم ، فإن صلاته بالضالين من مواطنيه تظل قائمة ، يعالجها بحكمته ، ويداويها بتسامحه .

وقبل أن يسدل الستار على هذه المأساة التى يمثلها الاستعمار على مسرح القضاء ويلبسها ثوب العدل والحق - يوجه « آزاد » حديثه إلى القاضى فيقول : « وإنك أيها القاضى ماذا عسى أن أقول لك ؟ إن أقول إلا ما قاله

المؤمنون قبلى فى مثل موقفى هذا : « فاقض ما أنت قاض ، إنما تقضى هذه الحياة الدنيا »(١) .

أيها القاضى : لقد طال الحديث وآن أوان الوداع فليودع كل منا صاحبه . إن ما يدور الآن بيننا ، سيسجله التاريخ فى سجله ليعتبر به المعتبرون . لقد اشتركنا فى ترتيبه على سواء . . أنا من القفص للجناة . وأنت من ذاك الكرسى للقضاء . . فهلم بنا نفرغ من هذا العمل . لنسرع فى المجىء إليك ولتسرع أنت فى القضاء علينا ، فإن هذا العمل لا يطول قليلا حتى يفتح باب محكمة أخرى ، محكمة قانون الله الحق . إن الزمان سوف يقضى فيها ، وسوف يكون قضاؤه حقاً وحكمه نافذاً » .

ذلك هو « آزاد » المسلم ، الذى تمكن الإسلام من قلبه ، فخاض لجج الأهوال وتقحم سبل المهالك ، دون أن تتعثر خطاه ، أو ينحرف عن غايته . إن الإسلام دين الوحدانية المطلقة التى رفعت بصر الإنسان خالصاً لله لا يلتفت إلى سواه . . فمن آمن بهذا الدين فليرفع رأسه وليقل كلمة الحق لأنها كلمة الله . وقد وقف « آزاد » الموقف الذى يدعوه إليه دينه ، ويهتف به وجدانه .

* * *

● **صلاح النفس :**

روى أن رجلا أتى إبراهيم بن أدهم فقال : يا أبا إسحاق . . أنى مسرف على نفسى . فاعرض على ما يكون لها زاجراً ، أو منقذاً . قال إبراهيم : إن قبلتَ منى خمس خصال فقدرت عليها ، لم تضرك المعصية . . قال : هات يا أبا إسحاق . قال إبراهيم :

أما الأولى ، فإذا أردت أن تعصى الله عز وجل فلا تأكل رزقه ؟ قال :

---

(١) طه : ٧٢ .

فمن أين آكل ، وكل ما فى الأرض من رزقه ؟ قال : أفيحسن بك أن تأكل رزقه وتعصيه ؟

قال : لا . . هات الثانية . قال : وإذا أردت أن تعصيه فلا تسكن شيئا من بلاده . قال : هذه أعظم من الأولى يا إبراهيم . . إذا كان المشرق والمغرب وما بينهما له فأين أسكن ؟ قال : يا هذا ، أفيحسن بك أن تأكل رزقه ، وتسكن بلاده ، وتعصيه ؟

قال : لا . هات الثالثة . . . قال : وإذا أردت أن تعصيه فانظر موضعا لا يراك فيه . . . فاعصه فيه . . . قال : يا إبراهيم ما هذا ؟ وهو يطلع على ما فى السر ؟ قال : يا هذا ، أفيحسن بك أن تأكل رزقه ، وتسكن بلاده ، وتعصيه ، وهو يراك ويعلم ما تجهر به !؟

قال : لا . . هات الرابعة . . . قال : إذا جاءك ملك الموت ليقبض روحك فقل له : أخرنى حتى أتوب . قال : لا يقبل منى . . . قال : يا هذا . . إذا كنت لا تقدر أن تدفع عنك الموت لتتوب . وتعلم أنه إذا جاء لم يكن له تأخير ، فكيف ترجو وجه الخلاص ؟

قال : هات الخامسة . . . قال : إذا جاءك الزبانية يوم القيامة ليأخذوك إلى النار فلا تذهب معهم . قال : إنهم لا يقبلون منى . قال : فكيف ترجو النجاة إذن ؟ قال : يا إبراهيم . . حسبى . . حسبى ، أنا أستغفر الله وأتوب إليه .

* * *

● **الحياة نافعة إذا خلت من مثل أعلى**[1] :

علمتني الحياة أنني ما حرصت على بلوغ شيء فبلغته ، إلا وأكون عند بلوغه قد زهدته :

---

(١) للأستاذ عبدالرزاق السنهورى .

كنت صبياً صغيراً أعيش فى أسرة مستورة الحال ، تهيأت لها أسباب العيش فى شىء من الطمأنينة والدعة ، ولم تتهيأ لها أسباب الثراء .. فتطلعت إلى خفض من العيش أوطأ مما كنت فيه ، فأراد الله أن أبلغ شيئا من ذلك ، وإذا أنا أزهد ما فى يدى منه ، لا أرى البيت الذى أسكنه - وكنت أتطلع إلى مثله فى مقتبل حياتى - إلا شيئا عاديا لا يشقى ولا يريح ، ولا أرى المال الذى أحرزته وكنت أحسب أنه يحقق شيئاً من السعادة - إلا شيئاً تافها لا يؤخر ولا يقدم ، ولا أرى الجاه الذى بلغته - وكنت أنظر إلى مثله لدى غيرى فأتوق إليه - إلا شيئاً فارغاً لا ينقص ولا يزيد ، فعلمت أن الحياة تافهة ، ما لم يرسم الإنسان لنفسه هدفاً ساميا يسعى لتحقيقه ، هدفا يعلو عن المادة ، ويبقى على الزمن ، إذا ما حقق شيئاً منه طابت نفسه ، وطلب المزيد .

* * *

وعلمتنى الحياة أن الناس فى درك هاو من الخسة ، وفى درجة عالية من السمو ، ينطوون على الخير والشر معاً ، ويهبطون بقدر ما يرتفعون .

عرفت وأنا شاب فى العشرين شاباً فى سنى ، وقامت بيننا أواصر الود والصداقة ثم تنكر لى بغتة ، وأبدى من أسباب الجفوة ما دل على انحطاط فى الخلق ، ودناءة فى الطبع ، ثم ما لبث هذا الصديق ، فى ظروف أخرى ، أن صفا معدنه ، وسمت نفسه ، فتقدم فى ميدان الجهاد ، وبذل روحه فداء لأمته ، ومات شهيداً ، فعلمت أن الناس لا يخلصون شياطين ، ولا يتمحضون ملائكة ، والعاقل من لبس الناس على حالهم ، لا يزهد فى الصديق وإن بدا شره ، ولا يقطع ما بينه وبين الناس لجرح لا يلبث أن يندمل ، أو لعارض لا يلبث أن يزول .

* * *

وعلمتنى الحياة أن حظوظ الناس تبدو متفاوتة أكثر من حقيقتها ، وهم فى الواقع متقاربون فى الشقاء والسعادة ، لكل من حظه ما يسعده ، ومن

همه ما يشقيه . عرفت رجلا كثير العيال رقيق الحال ، لايشك من ينظر إليه فى أنه ضيق بحظه من الدنيا ، وهو لا يكاد يفيق من هم إلا ويعثر فى هم ، وعلمت بعد ذلك أن الرجل ليس من الشقاء بالقدر الذى توحى به حاله ، فهو قد ألف ضيق العيش ، ووطن نفسه عليه ، حتى إذا أصابته نعمة ضئيلة على غفلة من دهره ، كان تقديره لها كبيراً ، وفرحه بها عظيما ، وذاق بها السعادة كما ذاق من قبلها الشقاء .

وعلمت من ثقة أن أحد ملوك المال فى مصر ، وهو رجل من أقوى الرجال فى بلده ، ومن أعرضهم جاهاً وأوسعهم نفوذاً ، رجل عرف بالسيطرة على أقدار الحكومات ، حتى أنه ليسقط حكومة ويقيم أخرى . هذا الرجل كثيراً ما يخلو إلى نفسه ، لينسى سوء حظه ، وليبتعد بشقائه عن عيون الناس ، بل إنه ليتسلل من سريره فى جنح الظلام لينفرد بنفسه ويبكى .

وعرفت سيدة كانت تتبرم من ضيق العيش ثم ورثت شقيقاً لها ، فأصبحت تتبرم بما أصابته من مال لا تعرف كيف تستغله ، فآمنت بعد كل ذلك أن الناس سواسية فى الشقاء والسعادة ، على خلاف ما يبدو من تفاوتهم فى أحوالهم ، وأن فى الأرض عدلا بين الناس أكثر مما يظن الناس .



وعلمتنى الحياة أن نجاحى رهن إيمانى بنفسى وإيمان الناس بى . فقد كانت ثقتى بنفسى تدفعنى إلى العمل . وكانت ثقة الناس بى تجعلنى أطمئن إلى نتيجة عملى ، وهذا القدر المتوازن من ثقة الإنسان بنفسه وثقة الناس به ، لابد منه لنجاحه فى الحياة . فإن زادت ثقته فى نفسه على هذا القدر كان ذلك غروراً يضله عن الحقائق ، وإن جاوز اعتماده على ثقة الناس به هذا القدر ، بحيث أصبح لا يصدر إلا من رأى الناس ولا ينزل إلا عند هواهم : كان ذلك ضعفاً واضطراباً يورثان انقياداً واستسلاما .

وتابعت فى نفسى وفيمن حولى هذا التوازن ، فأدركت أنه ضرورى فى كثير من الصفات الأخرى ، هو ضرورى فى الواقعية والخيال . فإن زادت الواقعية على الحد الواجب ، كان ذلك جموداً وضيقاً فى الأفق ، وإن زاد الخيال كان ذلك ميوعة وإغراقاً فى البعد عن الحقائق ، وهو ضرورى فى المادية والروحية ، فإن زادت المادية كان ذلك بلادة وتنكراً للقيم العليا فى الحياة ، وإن زادت الروحية كان ذلك عجزاً عن مواجهة الحياة فى حقائقها المادية ، وضرورى فى الاختلاط بالناس والانطواء على النفس ، وإلا كان الإمعان فى الاختلاط بالناس إهداراً للشخصية ، وكان الإغراق فى الانطواء على النفس عزلة ضارة .

ومع ذلك لابد من التسليم بصعوبة أن يجمع الإنسان فى نفسه هذا المزاج الموفق من الاعتدال والتوازن ، والأمر الجوهرى هو أن يعرف كيف يستطيع أن يتخفف من الإفراط فى صفة والتفريط فى أخرى . وعلمتنى الحياة أن الغفلة عن المستقبل هى أهم أسباب الراحة . وما تعبت لشىء أكثر من تعبى عندما أفكر فى المستقبل .

ولعل الموت هو الحقيقة الأولى التى لا يتطرق إليها الشك فهو المستقبل المحتم . ومن نعم الله على الإنسان أن جعله قادراً على التغافل عن هذه الحقيقة ، وإلا ظل قلقاً حائراً لا يفكر إلا فى الموت . وعلمتنى الحياة أن النعمة لا تعرف قيمتها إلا عندما تزول . وعلمتنى الحياة ألا تتسع أطماعى ، فلا أعرف أين أقف ، ثم يتعثر بى الحظ فأرضى بالقليل . وعلمتنى الحياة أنى أتعلم منها كل يوم ولن أنقطع عن التعلم حتى تقضى الحياة ومن يدرى - إذا أنا عشت - ماذا سأتعلم منها غداً .

* * *

● وصايا الإمام الغزالي ـ من رسالة تضمنت وعظ ملك[١] :

أما بعد . . . فالنصيحة هي هدية العلماء . . وإنه لن يهدي ـ أحد ـ إليه هدية فيجزيه بشيء أكرم من قبوله لها ، وإصغائه بقلب فارغ من ظلمات الدنيا إليها . . . وقد قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم من أكرم الناس ؟ فقال : أتقاهم . . . . فقيل : من أكيس الناس ؟ فقال : أكثرهم للموت ذكراً ، وأشدهم له استعداداً . . . وقال صلى الله عليه وسلم : الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت . . والأحمق من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأماني . . .

* * *

وأشد الناس غباوة وجهلا ، من تهمه أمور الدنيا التي تختطف منه عند الموت ، ولا يعرف أهو من أهل الجنة أو من أهل النار ، وقد عرفه الله تعالى ذلك حيث قال : « **إن الأبرار لفي نعيم** »[٢] « **وإن الفجار لفي جحيم** »[٣] . « **فأما من طغى . وآثر الحياة الدنيا . فإن الجحيم هي المأوى** »[٤] « **وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هي المأوى** »[٥] .

---

(١) هذا لون خاص من النصح ، يتعرض فيه الإمام لذي جبروت مفتون بالحياة سجين في مآربها ، مشغول عن الله والدار الآخرة . والرسالة في هذا المجال صحيحة كل الصحة .

فإن حاول الواعظ تعميم بعض ما جاء بها ، أخطأ القول وضل السبيل . فإن حفر الآبار مثلا من الأعمال الصالحة التي يبقى ثوابها بعد وفاة صاحبها . ولكنه هنا من ملك مغرور مغتصب للحقوق عد إثما يستحق لذلك اللوم ، فتأمل السياق جيدا حتى لا تزل .

(٢) الانفطار : ١٣ .
(٣) الانفطار : ١٤ .
(٤) النازعات : ٣٧ ـ ٣٩ .
(٥) النازعات : ٤٠ ـ ٤١ .

وإنى أوصيه أن يصرف إلى هذا المهم . همته . وأن يحاسب نفسه قبل أن يحاسب . وأن يراقب سريرته وعلانيته ، وأقواله ، وأفعاله . أهى مقصورة على ما يعمر دنياه بالمكدرات والهموم ، ثم يختمها والعياذ بالله بالشقاوة . . ؟ فليفتح عن بصيرته « **ولتنظر نفس ما قدمت لغد** » [١] .

وليعلم أنه لا مشفق عليها ولا ناظر فى أمرها سواه . وليتدبر ما هو بصدده . فإن كان مشغولا بعمارة ضيعة فلينظر : كم من قرية أهلكها الله وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها بعد عمارها . . ؟ وإن كان مقبلا على استخراج ماء أو عمارة نهر فلينظر : كم من بئر معطلة بعد عمارها . . . ؟ وإن كان مهتماً بتأسيس بناء فلينظر : كم من قصور مشيدة البنيان محكمة القواعد والأركان أظلمت بعد سكانها . ؟

وإن كان مشغولا بخدمة سلطان فليتذكر ما ورد فى الخبر : أنه ينادى مناد يوم القيامة . . أين الظلمة وأعوانهم . . ؟ فلا يبقى أحد مد لهم دواة أو برى لهم قلما فما فوق ذلك إلا أحضر . . فيجمعون فى تابوت من نار فيلقون فى جهنم . . وإن كان عزمه فى طلب المال وجمعه . . فليتأمل قول عيسى عليه السلام :

« يا معشر الحواريين . . مسرة فى الدنيا . . مضرة فى الآخرة . . بحق أقول لكم . . لا تدخل الأغنياء ملكوت السماء » . .

وقد قال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم : « يحشر الأغنياء أربع فرق : رجل جمع مالا من حرام وأنفقه فى حرام . . فيقال : اذهبوا به إلى النار . ورجل جمع مالا من حرام وأنفقه فى حلال . . فيقال : اذهبوا به إلى النار . ورجل جمع مالا من حلال وأنفقه فى حرام . . فيقال : اذهبوا به إلى النار . ورجل جمع مالا من حلال وأنفقه فى حلال . . فيقال : قفوا

---

(١) الحشر : ١٨ .

هذا وسلوه .. لعله ضيع بسبب غناه فيما فرضناه عليه .. أو قصر فى الصلاة ، أو فى وضوئها ، أو فى ركوعها ، أو فى سجودها ، أو فى خشوعها .؟ أو ضيع شيئا من فروض الزكاة والحج فيقول الرجل :

جمعت مالى من حلال ، وأنفقته فى حلال ، وما ضيعت شيئا من حدود الفرائض ، بل أتيت بتمامها . فيقال : لعلك باهيت بمالك .. واختلت فى شيء من ثيابك ؟ فيقول : يارب ما باهيت بمالى ... ولا اختلت فى شيء من ثيابى . فيقال : لعلك فرطت فيما أمرناك من صلة الرحم وحق الجيران والمساكين ، وقصرت فى التقديم والتأخير والتفضيل والتعديل . ويحيط به هؤلاء فيقولون : ربنا ... أغنيته بين أظهرنا وأحوجتنا إليه فقصر فى حقنا . فإن ظهر تقصيره ذهب إلى النار . وإلا قيل له : قف ..! هات الآن شكر كل نعمة . وكل شربة .. وكل أكلة .. ولذة . فلا يزال يسأل ويسأل » .

* * *

فهذه حال الصالحين المصلحين القائمين بحقوق الله . فكيف حال المفرطين المنهمكين فى الحرام والشبهات .؟

* * *

هذه المطالب الفاسدة هى التى استولت على قلوب الخلق تسخرها للشيطان وتجعلها ضحكة له . فعليه وعلى كل مستمر فى عداوة نفسه أن يتعلم علاج هذا المرض الذى حل بالقلوب .. فعلاج مرض القلوب أهم من علاج مرض الأبدان .. ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم .

وله دواءان .. أحدهما : ملازمة ذكر الموت وطول التأمل فيه . والدواء الثانى : تدبر كتاب الله تعالى : ففيه شفاء ورحمة للعالمين . وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بملازمة هذين الواعظين فقال : تركت فيكم واعظين .. صامتاً .. وناطقاً .. الصامت : الموت .. والناطق :

القرآن . . وقد أصبح أكثر الناس أمواتاً عن كتاب الله تعالى ، وإن كانوا أحياء فى معايشهم . .

وبكماً عن كتاب الله وإن كانوا يتلونه بألسنتهم . وصماً عن سماعه وإن كانوا يسمعونه بآذانهم . وعمياً عن عجائبه ، وإن كانوا ينظرون إليه فى مصاحفهم . وأميين فى أسراره ، وإن كانوا يشرحونه فى تفاسيرهم . فاحذر أن تكون منهم . وتدبر أمرك ، وأمر من لم يتدبر ، كيف ندم وتحسر ؟ وانظر أمرك وأمر من لم ينظر فى أمر نفسه ، كيف خاب عند الموت وخسر . ؟

واتعظ بآية واحدة من كتاب الله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون** » [1] .

* * *

وإياك . إياك . أن تشتغل بجمع المال . فإن فرحك به ينسيك أمر الآخرة . وينزع حلاوة الإيمان من قلبك . قال عيسى عليه السلام : « لا تنظروا إلى أموال أهل الدنيا ، فإن بريق أموالهم يذهب بحلاوة إيمانكم » .

* * *

واسأل الله أن يصغر عنده الدنيا التى هى صغيرة عند الله ، وأن يعظم فى عينيه الذى هو عظيم عنده ، وأن يوفقنا وإياه لمرضاته ويحله فى الفردوس الأعلى من جناته . بفضله ، وكرمه ، آمين .

* * *

---

(١) المنافقون : ٩ .

● **الرسالة التأديبية**[١] :

يقول الإمام الغزالى : إن هاشماً الأصم كان من أصحاب شقيق البلخى رحمة الله عليهما . فسأله يوماً فقال : صاحبتنى منذ ثلاثين سنة ، ما حصلت فيها ؟ قال : حصلت ثمانى فوائد من العلم ، وهى تكفينى منه لأنى أرجو خلاصى ونجاتى فيها . فقال شقيق : ما هى ؟

قال هاشم الأصم : الفائدة الأولى : إنى نظرت إلى الخلق فرأيت لكل منهم محبوباً يحبه ويعشقه . وبعض أولئك المحبوبين يصاحبه إلى مرض الموت . والبعض الآخر إلى شفير القبر . ثم يرجع كله ويتركه فريداً ، وحيداً ، ولا يدخل معه فى قبره منهم أحد . فتفكرت وقلت : أفضل محبوب المرء ما يدخل فى قبره ويؤانسه فيه ، فما وجدته فى غير الأعمال الصالحة . . فأخذتها محبوباً لتكون سراجاً فى قبرى ، وتؤانسنى فيه ولا تتركنى فريداً .

الفائدة الثانية : أنى رأيت الخلق يقتدون بأهوائهم ، ويبادرون إلى مراد أنفسهم فتأملت قوله تعالى : « **وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هى المأوى** »[٢] فتيقنت أن القرآن حق صادق ، فبادرت إلى خلاف نفسي وتمرست بمجاهدتها وما متعتها بهواها حتى رضيت بطاعة الله سبحانه وتعالى وانقادت .

الفائدة الثالثة : إنى رأيت كل واحد من الناس يسعى فى جمع حطام الدنيا ثم يمسكه قابضاً بيده عليه . فتأملت قوله تعالى : « **ما عندكم ينفد ، وما عند الله باق** »[٣] . فلذت بالإيثار واستودعت عند الله إعانة البائس وإسعاف الفقير لعلى أحشر فى ظل صدقتى يوم يقوم الناس لرب العالمين .

(١) للإمام الغزالى .

(٢) النازعات : ٤٠ ـ ٤١ .

(٣) النحل : ٩٦ .

الفائدة الرابعة : إنى رأيت بعض الخلق ظن شرفه وعزه فى كثرة الأقوام والعشائر فاعتز بهم . وزعم آخرون أنه فى حيازة الأموال وكثرة الأولاد فافتخروا بها . وحسب بعضهم الشرف والعز فى غصب أموال الناس وظلمهم وسفك دمائهم . واعتقدت طائفة أنه فى إتلاف المال وإسرافه وتبذيره وتأملت قوله تعالى : « **فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور** »[1] ، فأقبلت على ربى ونفضت يدى من هذه الملهيات والأباطيل .

الفائدة الخامسة : إنى رأيت الناس يذم بعضهم بعضاً ، ويغتاب بعضهم بعضاً فوجدت ذلك من الحسد فى المال . والجاه ، والعلم . فتأملت قوله تعالى : « **نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا** »[2] . « **ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ، ورحمة ربك خير مما يجمعون** »[3] . فعلمت أن القسمة من الله تعالى فى الأزل . وأن الضيق بها حق . فما حسدت أحداً ، ورضيت بقسمة الله تعالى .

الفائدة السادسة : إنى رأيت الناس يعادى بعضهم بعضاً لشتى الأغراض والأسباب فتأملت قوله تعالى : « **إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً** »[4] . فعلمت أنه لا يجوز غير عداوة الشيطان ، فانتصبت له وتأهبت لحربه .

الفائدة السابعة : إنى رأيت كل أحد يسعى بجده ، ويجتهد فى طلب القوت والمعاش ، بحيث يقع فى شبهة أو حرام ، بل قد يذل نفسه وينقص قدره ، فتأملت قوله تعالى : « **وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها** »[5] . فعلمت أن رزقى على الله تعالى ، وقد ضمنه ، فاشتغلت

(١) آل عمران : ١٨٥ .

(٢) الزخرف : ٣٢ .

(٣) الزخرف : ٣٢ .

(٤) فاطر : ٦ .

(٥) فاطر : ٦ .

بعبادته وقطعت طمعى عمن سواه وترفعت عن الشبهات والدنايا .

الفائدة الثامنة : إنى رأيت كل واحد يعتمد على مخلوق . بعضهم على الدنيا والدرهم . وبعضهم على المال والملك . وبعضهم على الحرفة والصناعة . وبعضهم على مخلوق مثله من الكبراء أصحاب الحول والطول . فتأملت قوله تعالى : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه »[1] . فتوكلت على الله تعالى ، فهو حسبى ونعم الوكيل . فقال شقيق : وفقك الله . إنى نظرت فى التوراة ، والإنجيل ، والزبور ، والفرقان . فوجدت الكتب الأربعة تدور حول هذه الفوائد ، فمن عمل بها كان عاملا بهذه الكتب الأربعة . . .

* * *

• بين العلم والعمل . رسالة من الإمام الغزالى إلى أحد تلاميذه :

يا ولدى . . . ! النصيحة سهلة ، ولكن الصعب قبولها . . . ! لأنها فى فم من لم يتعودها مرة المذاق . . . . وإن من يحصل العلم ولا يعمل به تكون التبعة عليه أعظم كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لا ينتفع بعلمه » . .

يا ولدى . . . لا تكن من الأعمال مفلساً . ولا من الاجتهاد فى الطاعة خالياً . وتيقن أن العلم المجرد لا يؤخذ باليد كما لو كان مع رجل عشرة أسياف هندية وهو فى صحراء فخرج عليه أسد عظيم مهيب ، فهل تدفع عنه هذه الأسلحة دون أن يستعملها ؟ كذلك مثل العلم والعمل . . لا فائدة فى الأول بدون الثانى .

يا ولدى . . لو قرأت العلم مائة سنة . وجمعت ألف كتاب . لا تكون مستعدا لرحمة الله إلا بالعمل . « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى »[2]

---

(١) الطلاق : ٣ . (٢) النجم : ٣٩ .

« فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا »[١] .

يا ولدى . . . ما لم تعمل لم تجد الأجر . وفيما ينسب إلى على كرم الله وجهه : من ظن أنه بدون الجهد يصل فهو متمن . والمنى بضائع الحمقى . وقال الحسن البصرى رضى الله عنه : طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب . وفى الخبر عن أهل الله تعالى : ما أقل حياء من يطمع فى جنتى بغير عمل . وقد قال صلى الله عليه وسلم : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت . . والأحمق من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله المغفرة » .

يا ولدى . . . عش ما شئت فإنك ميت ، وأحبب من شئت فإنك مفارقه . واعمل ما شئت فإنك مجزى به . والعلم بلا عمل جنون . « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب ، أفلا تعقلون »[٢] . والعمل بغير علم لا يكون . . فلابد منهما معاً . . وإن العلم وحده لا يبعدك اليوم عن المعاصى . ولا ينجيك غداً من النار . فإذا لم تجتهد اليوم فى العمل ، لتقولن يوم القيامة : أرجعنا نعمل صالحاً . فيقال لك : يا هذا أنت من هناك جئت ؟ .

* * *

● موقفى من الناس[٣] :

علمتنى الحياة خطتين فى سياستى مع الناس . . خطة أتبعها فيما يصيبنى من الناس ، وخطة أتبعها فيما يصيب الناس منى . فاسترحت كثيرا من تبديد شعورى فى غير طائل ، وعرفت كيف يكون الاقتصاد فى إنفاق ثروة الحياة .

---

(١) الكهف : ١١٠ .

(٢) البقرة : ٤٤ .

(٣) للأستاذ عباس محمود العقاد .

أما خطتى فيما يصيبنى من الناس ، فهى أن أتناول طباعهم وأخلاقهم جملة واحدة ، ولا أفرق بينهم على حسب اختلاف الأشخاص والأفراد . كان الخلق الواحد فى مبدأ الأمر يسبب لى الألم وخيبة الرجاء عشرات المرات ، بل مئات المرات . . وكنت فى كل مرة أشعر بصدمة المفاجأة كأنى أكتشف شيئا جديدا لم أتوقعه من قبل .

ثم تعودت مع الزمن أن أجعل للناس جميعا حساباً واحداً فى رصيد المكسب والخسارة ، فهبطت الخسارة كثيراً على الأقل ، وهذا فى ذاته مكسب محدود . تعودت أن أجمع الأخلاق إلى أنواعها ، وأن أضع كل نوع منها تحت عنوانه ، فى الناس أنانية ، فى الناس صغار ، فى الناس سخافة ، فى الناس نقائض وغرائب ، وهكذا ، وهكذا ، إلى آخر هذه المألوفات التى توارثناها نحن أبناء آدم وحواء ، فليس فيها من جديد .

فإذا أصابنى من الناس شىء مكدر رجعت به إلى عنوانه ، فوجدته مسجلا هناك ولم يفاجئنى بما لا أنتظر ، فى الناس أنانية . . فى الناس صغار . . نعم . . نعم ، وماذا فى ذلك ؟

ألم تعلم هذا من قبل ! بلى ، علمته مرة بعد مرة . . فما وجه الاستغراب ، ولماذا الألم والشكوى ؟ وراقبت نفسى طويلا فوضعت نفسى فى القائمة . وتعودت أن أقول لها كلما أصابها ما يكدرها : « وأنت أيضا كذلك ؟» فلا للحساب والعقاب .

أما خطتى فيما يصيب الناس منى ، فهى أن أسأل نفسى كلما شعرت بسخطهم أو انتقادهم « هل الأمر يعنينى » ؟ . وبعبارة أخرى « هل يضيرنى أن أفقد رضاهم . وهل يعيبنى أن أفقده » ؟

فإذا كان فى الأمر ما يضير أو ما يعيب ، فالأمر يعنينى ، ولابد من معالجته بما أستطيع ، وإلا فلا وجه للتعب والاكتراث ، وعولت دائما على

المقياس العملى لأن الجرى وراء النظريات لا ينتهى إلى غاية ، فكنت أضع أمامى على الدوام خمسة أو ستة من الذين أعرفهم ، وأعرف أنهم من أصحاب الحظوة عند الناس ، وأن الناس لا يسخطون عليهم ، ولا ينتقدونهم ، فأتساءل : وهل يسرك أن تكون مثلهم ، وأن تحصل على الرضا كما حصلوا عليه ؟

وكان جواب هذا التساؤل نافعاً لى على الدوام ، لأنه يجدد لى العمل اللازم ، أو يعفينى من كل عمل ، ويبين لى فى معظم الأحوال أن ثروة الرضا والثناء عملة زائفة ، أو عملة صحيحة ، على أحسن الوجوه ، ولكن الاستغناء عنها غير عسير .

* * *

ومن التجارب الكثيرة فى الأشخاص الذين عرفتهم حق المعرفة تبين لى أنهم يحتالون ، ويتعبون عقولهم وضمائرهم فى الاحتيال ، طلبا للشهرة التى لا تهمهم لذاتها ، ولكنها تهمهم لغاية يصلون إليها من ورائها . وحمدت الله لأن تلك الغاية لا تهمنى أنا . ولا تستحق عندى أن أبذل فيها أى تعب حتى استطعته كل لحظة ، وكنت كمن يتمنى نصيباً من المال ليشترى به شيئا ثم علم أن الشىء لا يستحق الشراء فاستغنى عن المال واستغنى عن ثمنه . خطتان سهلتان ـ خطة مع الناس ، وهى أن أجمعهم جملة واحدة .

وخطة مع نفسى ، وهى أن تقصر جهودها وهمومها على ما يعنيها . والخطتان سهلتان كما قلت ، ولكنى لا أنسى أن أقول : إنهما سهلتان على من هو مثلى ، مطبوع على العزلة وقلة الاختلاط بالناس . وحب العزلة عادة لم أتعلمها من الحياة ، بل أخذتها من أبوى الاثنين بغير تعليم ، فمن استطاع أن يتعلمها فليتعلمها ، إن كانت تعنيه » .

* * *

• من خطبة لعمر بن عبدالعزيز :

قال رضي الله عنه : أيها الناس . . إنكم لم تخلقوا عبثاً ، ولم تتركوا سدى ، وإن لكم معاداً يحكم الله بينكم فيه ، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء ، وحرم جنة عرضها السماوات والأرض ، واعلموا أن الأمان غدا لمن خاف اليوم ، وباع قليلا بكثير ، وفانياً بباق .

ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين ، وسيخلفها بعدكم الباقون ! كذلك حتى تردوا إلى خير الوارثين . ثم إنكم في كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً إلى الله ، قد قضى نحبه وبلغ أجله ، ثم تغيبونه في صدع من الأرض ، ثم تدعونه غير موسد ولاممهد ، قد خلع الأسباب ، وفارق الأحباب ، وواجه الحساب مرتهنا بعمله ، غنياً عما ترك ، فقيراً إلى ما قدم .

وأيم الله ، إني لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما عندي . فأستغفر الله لي ولكم . وما تبلغنا عن أحد منكم حاجة يتبع لها ما عندنا إلا سددناه . ولا أحد منكم إلا وودت أن يده مع يدي ، ولحمتي الذين يلونني ، حتى يستوي عيشنا وعيشكم .

وأيم الله إني لو أردت غير هذا من عيش أو غضارة لكان اللسان به ناطقاً ذلولا عالماً بأسبابه ، ولكنه مضى من الله كتاب ناطق ، وسنة عادلة ، دل فيها على طاعته ، ونهى عن معصيته . ثم بكى . فتلقى دموع عينيه بردائه ونزل . فلم ير بعدها على تلك الأعواد حتى قبضه الله تعالى . .

* * *

• هكذا ترك الخليفة أولاده :

دخل مسلمة بن عبدالملك على عمر بن عبدالعزيز في المرضة التي مات فيها فقال له : يا أمير المؤمنين إنك فطمت أفواه ولدك عن هذا المال ،

وتركتهم عالة ، ولابد لهم من شيء يصلحهم ، فلو أوصيت بهم إلى ، أو إلى نظرائك من أهل بيتك لكفيتك مؤونتهم إن شاء الله .

فقال عمر : أجلسونى ، فأجلسوه ، فقال : الحمد لله . . أبالله تخوفنى يا مسلمة ؟ . أما ما ذكرت أنى قطعت أفواه ولدى عن هذا المال ، وتركتهم عالة ، فإنى لم أمنعهم حقاً هو لهم ، ولم أعطهم حقاً هو لغيرهم . وأما ما سألت من الوصية إليك ، أو إلى نظرائى من أهل بيتى ، فإن وصيتى بهم إلى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين .

وإنما بنو « عمر » أحد رجلين : رجل اتقى الله فجعل الله له من أمره يسراً ، ورزقه من حيث لا يحتسب ، ورجل غير وفجر ! فلا يكون « عمر » أول من أعانه على ارتكابه الآثام . ادعوا إلى بنى . . فدعوهم وهم يومئذ اثنا عشر غلاماً ؟ .

فجعل يصعد بصره فيهم ويصوبه - حتى أغرورقت عيناه بالدمع - ثم قال : بنفسى فتية تركتهم ولا مال لهم ! يا بنى . إنى قد تركتكم من الله بخير . إنكم لا تمرون على مسلم ولا معاهد إلا ولكم عليه حق واجب إن شاء الله . يا بنى : لقد أدرت رأيى بين أن تفتقروا فى الدنيا ، وبين أن يدخل أبوكم النار .

فكان أن تفتقروا إلى آخر الأبد خيراً من دخولكم وأبيكم يوماً واحداً فى النار . قوموا يا بنى عصمكم الله ورزقكم . قال : فما احتاج أحد من أولاد عمر ولا افتقر .

* * *

● **الإمام العادل :**

طلب عمر بن عبدالعزيز حين ولى الخلافة إلى الحسن البصرى أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل ، فكتب إليه الحسن رحمه الله : « اعلم

يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل ، وقصد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفة كل مظلوم ، ومفزع كل ملهوف .

والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله الرفيق بها الذى يرتاد لها أطيب المراعى ويزودها عن مراتع الهلكة ويحميها من السباع ، ويكنفها من أذى الحر والكر .

والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحانى على ولده ، يسعى لهم صغاراً ، ويعلمهم كباراً ، يكتسب لهم فى حياته ، ويدخر لهم بعد مماته . والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها ، حملته كرهاً ووضعته كرهاً ، وربته طفلا ، تسهر بسهره ، وتسكن بسكونه . ترضعه تارة ، وتفطمه أخرى ، وتفرح بعافيته ، وتغتم بشكايته .

والإمام العدل يا أمير المؤمنين وصى اليتامى ، وخازن المساكين ، يربى صغيرهم ، ويمون كبيرهم . والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح ، تصلح الجوانح بصلاحه ، وتفسد بفساده . والإمام العدل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده ، يسمع كلام الله ويسمعهم ، وينظر إلى الله ويريهم ، وينقاد إلى الله ويقودهم .

فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده ، واستحفظه ماله وعياله ، فبدد المال ، وشرد العيال ، فأفقر أهله ، وفرق ماله . واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش ، فكيف إذا أتاها من يليها ؟ وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم ؟

واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده ، وقلة أشياعك عنده ، وأنصارك عليه ، فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر . واعلم يا أمير المؤمنين أن لك

منزلا غير منزلك الذى أنت فيه ، يطول فيه ثواؤك ويفارقك أحباؤك ، ويسلمونك إلى مقرك فريداً وحيداً . فتزود له ما يصحبك يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه .

واذكر يا أمير المؤمنين إذا بعثر ما فى القبور ، وحصل ما فى الصدور ، فالأسرار ظاهرة ، والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، فالآن يا أمير المؤمنين وأنت فى مهل . قبل حلول الأجل وانقطاع الأمل لا تحكم يا أمير المؤمنين فى عبدالله بحكم الجاهلين . ولا تسلك بهم سبيل الظالمين . ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين . فإنهم لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة ، فتبوء بأوزارك ، وأوزار مع أوزارك ، وتحمل أثقالك ، وأثقالا مع أثقالك .

ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك ، ويأكلون الطيبات فى دنياهم بإذهاب طيباتك فى آخرتك ، لا تنظر إلى قدرتك اليوم ، ولكن انظر إلى قدرتك غداً وأنت مأسور فى حبائل الموت ، وموقف بين يدى الله فى مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين ، وقد عنت الوجوه للحى القيوم .

إنى يا أمير المؤمنين وإن لم أبلغ بعظتى ما بلغه أولو النهى من قبلى ، فلم آلك شفقة ونصحاً ، فأنزل كتابى إليك كمداوى حبيبه ، يسقيه الأدوية الكريهة ، لما يرجو له ذلك من العافية والصحة . والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

● نموذج الحاكم المسلم :

دخل ضرار الصدائى على معاوية فقال له : يا ضرار صف لى علياً. قال : أعفنى يا أمير المؤمنين !! قال : لتصفنه . قال : أما إذ لابد من وصفه ، فكان - والله - بعيد المدى ، شديد القوى . يقول فصلا . ويحكم عدلا . يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه . يستوحش

من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل ووحشته . وكان غزير العبرة[1] ، طويل الفكرة . يعجبه من اللباس ما قصر ومن الطعام ما خشن .

وكان فينا كأحدنا ، يجيبنا إذا سألناه ، ويتيننا إذا استنبأناه ، ونحن والله - مع تقريبه إيانا وقربه منا - لا نكاد نكلمه هيبة له . يعظم أهل الدين ، ويقرب المساكين . لا يطمع القوى فى باطله ولا ييأس الضعيف من عدله . وأشهد لقد رأيته فى بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه ، قابضاً على لحيته ، يتململ تململ السليم [2] ، ويبكى بكاء الحزين ، ويقول : يا دنيا غرى غيري . ألى تعرضت أم إلى تشوفت ؟ هيهات هيهات !! قد باينتك ثلاثاً لا رجعة فيها . فعمرك قصير ، وخطرك حقير . آه من قلة الزاد وبعد السفر ، ووحشة الطريق .

فبكى معاوية وقال : رحم الله أبا الحسن . . كان - والله - كذلك . فكيف حزنك عليه يا ضرار ؟ قال : حزن من ذبح ولدها وهو فى حجرها .

* * *

● **خطبة يزيد بن الوليد :**

لما قتل « الوليد بن يزيد » قام ابن عمه « يزيد بن الوليد بن عبدالملك » خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس . . والله ما خرجت أشراً ، ولا بطراً ، ولا حرصاً على الدنيا ، ولا رغبة فى الملك . . وما بى إطراء نفسى ، ولا تزكية عملى ، وإنى لظلوم لنفسى إن لم يرحمن ربى ، ولكنى خرجت غضباً لله ودينه ، داعيا إلى الله وسنة نبيه لما هدمت معالم الهدى وأطفىء نور التقوى ، وظهر الجبار العنيد ، المستحل لكل حرمة ، الراكب لكل بدعة - مع أنه والله ما كان يؤمن بيوم الحساب ، ولا يصدق

---

(١) الدمعة .

(٢) الملدوغ .

بالثواب والعقاب ، وإنه لابن عمى فى النسب ، وكفى فى الحسب ، فلما رأيت ذلك ، أشفقت أن غشيتكم ظلمة لا تقلع عنكم على كثرة من ذنوبكم ، وقسوة من قلوبكم ، وأشفقت أن يدعو كثير من الناس إلى ما هو عليه ، فيجيبه من أجابه منكم ، فاستخرت الله فى أمرى ، وسألته ألا يكلنى إلى نفسى ، ودعوت إلى ذلك من أجابنى من أهل ولايتى حتى أراح الله منه العباد ، وطهر البلاد بحول الله وقوته ، لا بحولى وقوتى .

أيها الناس . . إن لكم على ألا أضع حجراً على حجر ، ولا لبنة على لبنة ، ولا أكرى نهراً ولا أكنز مالا ولا أعطيه زوجاً ولا ولداً ، ولا أنقل مالا من بلد إلى بلد حتى أسد فقر ذلك البلد وخصاصة أهله بما يغنيهم فإن بقى فضل فهو إلى البلد الذى يليه ممن هو أحوج إليه منه حتى تستقيم المعيشة بين المسلمين وتكونوا فيه سواء ، ولكم ألا أجمركم فى ثغوركم فافتنكم وأفتن أهلكم ، وألا أغلق بابى دونكم فيأكل قويكم ضعيفكم ، وألا أحمل على أهل جزيتكم ما أجليهم به عن بلادهم وأقطع نسلهم .

ولكم عندى أعطياتكم فى كل سنة وأرزاقكم فى كل شهر ، حتى يعم الخير بين المسلمين ، فيكون أقصاهم كأدناهم . فإذا أنا وفيت لكم فعليكم السمع والطاعة ، وحسن المؤازرة والمكاتفة . وإن أنا لم أف لكم فلكم أن تخلعونى إلا أن تستتيبونى ، فإن أنا تبت قبلتم منى .

وإن عرفتم أحداً يقوم مقامى - ممن يعرف بالصلاح - يعطيكم من نفسه مثل ما أعطيتكم فأردتم أن تبايعوه فأنا أول من بايعه ودخل فى طاعته . أيها الناس : لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

* * *

● أبو حمزة الخارجى يصف أصحابه :

يا أهل مكة . . . تعيروننى بأصحابى ؟ تقولون : إنهم شباب ! وهل

كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم إلا شباباً ؟ شباب والله مكتهلون فى شبابهم . عمية عن الشر أعينهم . بطيئة عن الباطل أرجلهم . . قد نظر الله إليهم فى آناء الليل منثنية أصلابهم بمثانى القرآن . . .

إذا مر أحدهم بآية فيها ذكر الجنة بكى شوقاً إليها . وإذا مر بآية فيها ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم فى أذنيه . . قد وصلوا كلال ليلهم بكلال نهارهم . . أنضاء عبادة . قد أكلت الأرض جباههم وأبدانهم وركبهم من كثرة السجود . مصفرة ألوانهم . ناحلة أجسامهم من كثرة الصيام وطول القيام . . مستقلون لذلك فى جنب الله . . موفون بعهد الله .

حتى إذا رأوا سهام العدو قد فوقت ، ورماحه قد شرعت ، وسيوفه قد انتضيت ، وبرقت الكتيبة بصواعق الموت ، استهانوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله . فمضى الشاب منهم قدماً حتى تختلف رجلاه على عنق فرسه قد زملت محاسن وجهه بالدماء . وعفر جبينه بالثرى . . . وأسرع إليه سباع الأرض ، وانحطت عليه طير السماء . .

فكم من مقلة فى فم طائر . طالما بكى صاحبها من خشية الله . . ؟ وكم من كف بانت عن معصمها . طالما اعتمد عليها صاحبها فى سجوده ؟ . وكم من خد عتيق ، وجبين رقيق . قد فلق بعمد الحديد . . . ؟ رحمة الله على تلك الأبدان . وأدخل أرواحها فى الجنان . .

* * *

● **رجل مؤمن يعظ المنصور :**

بينما المنصور فى الطواف ليلا إذ سمع قائلا يقول : اللهم إنى أشكو إليك ظهور البغى والفساد فى الأرض ، وما يحول بين الحق وأهله من الطمع . فخرج « المنصور » فجلس ناحية من المسجد ، وأرسل إلى الرجل يدعوه . فصلى الرجل ركعتين ، واستلم الركن ، ثم أقبل مع

الرسول فسلم عليه بالخلافة فقال المنصور : ما الذى سمعتك تقول من ظهور بالبغى والفساد فى الأرض ؟

وما الذى يحول بين الحق وأهله من الطمع ؟ ، فوالله حشوت مسامعى ما أمضنى !! فقال : إن أمتنى يا أمير المؤمنين أعلمتك بالأمور من أصولها ، وإلا احتجزت منك ، واقتصرت على نفسى فلى فيها شاغل . قال : فأنت آمن على نفسك . قال : يا أمير المؤمنين إن الذى دخله الطمع حتى حال بينه وبين ما ظهر فى الأرض من الفساد والبغى لأنت ! فقال : كيف ذلك ! ويحك . . . أيدخلنى الطمع والصفراء والبيضاء فى قبضتى ، والحلو والحامض عندى !!

قال : وهل دخل أحداً من الطمع ما دخلك ؟ إن الله استرعاك أمر عباده وأموالهم ، فأغفلت أمورهم ، واهتممت بجمع أموالهم ، وجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجص والآجر ، وأبواباً من الحديد ، وحراسا معهم السلاح ، ثم حجبت نفسك عنهم فيها ، وبعثت عمالك فى جباية الأموال وجمعها ، وأمرت ألا يدخل عليك أحد من الرجال إلا فلان وفلان نفراً سميتهم . . ولم تأمر بإيصال المظلوم ، ولا الملهوف ، ولا الجائع ولا العارى إليك ، ولا أحد إلا وله فى هذا المال حق . . فلما رآك هؤلاء النفر استخلصتهم لنفسك ، وآثرتهم على رعيتك ، وأمرت ألا يحجبوا دونك ورأوك تجبى الأموال وتجمعها ، ولا تقسمها على أهلها .

قالوا : هذا قد خان الله فمالنا لا نخونه ؟! فائتمروا ألا يصل إليك من علم أخبار الناس شىء إلا ما أرادوا ، ولا يخرج لك عامل فيخالف أمرهم ، إلا خونوه عندك حتى تسقط منزلته ، فلما انتشر ذلك عنك وعنهم عظمهم الناس وهابوهم وصانعوهم ، فكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والأموال ليقدروا بها على ظلم رعيتك ، ثم فعل ذلك ذوو المقدرة والثروة من رعيتك . . لينالوا ظلم من دونهم ، فامتلأت بلاد الله بالطمع ظلما وبغيا وفساداً . وصار هؤلاء القوم شركاءك فى سلطانك وأنت غافل ،

فإن جاء متظلم حيل بينك وبينه ، فإن أراد رفع قصته إليك عند ظهورك ، وجدك قد نهيت عن ذلك ، ووقفت للناس رجلا ينظر فى مظالمهم . . فإن جاء ذلك المتظلم ، فبلغ بطانتك خبره سألوا صاحب المظالم ألا يرفع مظلمته إليك . . فلا يزال المظلوم يختلف إليه ، ويلوذ به ويشكو ، ويستغيث ، وهو يدفعه ، فإذا أجهد وأحرج ثم ظهرت صرخ بين يديك !! ، فيضرب ضرباً مبرحاً يكون نكالا لغيره ، وأنت تنظر فمن تنكر !! فما بقاء الإسلام على هذا !

وقد كنت يا أمير المؤمنين أسافر إلى الصين ، فقدمتها مرة ، وقد أصيب ملكهم بسمعه ، فبكى بكاء شديداً ، فحثه جلساؤه على الصبر . . فقال : أما أنى لست أبكى للبلية النازلة ، ولكنى أبكى لمظلوم يصرخ بالباب فلا أسمع صوته . ثم قال : أما إذ ذهب سمعى ، فإن بصرى لم يذهب ، نادوا فى الناس ألا يلبس ثوباً أحمر إلا متظلم .

ثم كان يركب البغل طرفى النهار : هل يرى مظلوماً ؟ فهذا يا أمير المؤمنين مشرك بالله بلغت رأفته بالمشركين هذا المبلغ وأنت مؤمن بالله ومن أهل بيت نبيه ، ولا تغلبك رأفتك بالمسلمين على شح نفسك ! فإن كنت إنما تجمع المال لولدك ، فقد أراك الله عبراً فى الطفل يسقط من بطن أمه ما له على الأرض من مال إلا ودونه يد شحيحة تحويه ، فما يزال الله يلطف بذلك الطفل حتى تعظم رغبة الناس إليه .

ولست الذى تعطى . . بل الله يعطى من يشاء ما يشاء . فإن قلت : إنما تجمع المال لتشديد السلطان ، فقد أراك الله عبراً فى بنى أمية ما أغنى عنهم ما جمعوا من الذهب ، وما أعدوا من الرجال والسلاح والكراع حين أراد الله بهم ما أراد . وإن قلت : إنما تجمع المال لغاية هى أجسم من الغاية التى أنت فيها ، فوالله ما فوق ما أنت فيه إلا منزلة ما تدرك إلا بخلاف ما أنت عليه . . .

يا أمير المؤمنين . . هل تعاقب من عصاك بأشد من القتل ؟ فقال المنصور : لا . فقال : فكيف تصنع بالملك الذى خولك ملك الدنيا ، وهو لا يعاقب من عصاه بالقتل ، ولكن بالخلود فى العذاب الأليم ؟ فقد رأى ما عقدت عليه قلبك ، وما عملته جوارحك ونظر إليه بصرك ، واجترحت يداك . ومشت إليه رجلاك . . هل يغنى عنك ما شححت عليه من ملك الدنيا إذا انتزعه من يدك ودعاك إلى الحساب ؟

فبكى المنصور ثم قال : ليتنى لم أخلق !! ويحك كيف أحتال لنفسى ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن للناس أعلاماً يفزعون إليهم فى دينهم ويرضون بهم فى دنياهم ، فاجعلهم بطانتك يرشدوك ، وشاورهم فى أمرك يسددوك . قال : قد بعثت إليهم فهربوا منى . .

قال : خافوك أن تحملهم على طريقتك ، ولكن افتح بابك . وسهل حجابك ، وانصر المظلوم ، واقمع الظالم ، وخذ الفيء والصدقات على حلها ، واقسمها بالحق والعدل على أهلها ، وأنا ضامن عنهم أن يأتوك ويساعدوك على صلاح الأمة . ثم جاء المؤذنون ، فآذنوه بالصلاة فصلى ، وعاد إلى مجلسه ، وطلب الرجل فلم يوجد ؟

* * *

● **ولا تركنوا إلى الذين ظلموا :**

لقى أبو جعفر المنصور « سفيان الثورى » فى الطواف - و« سفيان » لا يعرفه - فضرب بيده على عاتقه وقال : أتعرفنى ؟ قال : لا ، ولكنك قبضت على قبضة جبار . قال : عظنى أبا عبدالله . قال : وما عملت فيما علمت فأعطك فيما جهلت ؟! قال : فما يمنعك أن تأتينا ؟ قال : إن الله نهى عنكم ، فقال تعالى : « **ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار** » [1] .

---

(١) هود : ١١٣ .

فمسح أبو جعفر يده به ثم التفت إلى أصحابه ، فقال : ألقينا الحب إلى العلماء ، فلقطوا . . . إلا ما كان من سفيان ، فإنه أعيانا فراراً . .

* * *

● **خطبة المأمون فى عيد الفطر :**

قال بعد التحميد والتكبير : ألا وإن يومكم هذا يوم عيد وسرور ، وابتهال ورغبة ، يوم ختم الله صيام شهر رمضان ، وافتتح به حج بيته الحرام فجعله خاتمة الشهر وأول شهور الحج ، وجعله معقبا لمفروض صيامكم ، ومتنقل قيامكم ، أحل الله لكم الطعام ، وحرم عليكم فيه الصيام ، فاطلبوا إلى الله حوائجكم ، واستغفروه لتفريطكم ، فإنه يقال : لا كبيرة مع ندم واستغفار ، ولا صغيرة مع تماد وإصرار . ثم كبر وحمد . وذكر النبى صلى الله عليه وسلم وأوصى بالبر والتقوى ثم قال :

اتقوا الله عباد الله . وبادروا الأمر الذى اعتدل فيه يقينكم . ولم يحضر الشك فيه أحدا منكم . وهو الموت المكتوب عليكم ، فإنه لا تستقال بعده عثرة ، ولا تحظر قبله توبة . واعلموا أنه لا شىء قبله إلا دونه ولا شىء بعده إلا فوقه . ولا يعين على جزعه وكربه وعلى القبر وظلمته ووحشته وضيقه وهول مطلعه ومسألة ملكيه إلا العمل الصالح الذى أمر الله به ، فمن زلت عند الموت قدمه فقد ظهرت ندامته ، وفاتته استقامته ، ودعا من الرجعة ما لا يجاب إليه ، وبذل من الفدية ما لا يقبل منه ، فالله الله عباد الله ، كونوا قوماً سألوا الرجعة فأعطوها إذ منعها الذين طلبوها ، فإنه ليس يتمنى المتقدمون قبلكم إلا هذا الأجل المبسوط لكم ، فاحذروا ما حذركم الله منه ، واتقوا اليوم الذى يجمعكم الله فيه لوضع موازينكم ، ونشر صحائفكم الحافظة لأعمالكم فلينظر عبد ما يضع فى ميزانه مما يثقل به وما يملى فى صحيفته الحافظة لما عليه وله ، فقد حكى الله لكم ما قال المفرطون عندما طال إعراضهم عنه .

قال جل ذكره : « ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضراً ، ولا يظلم ربك أحداً »[١] . وقال : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين »[٢]

ولست أنهاكم عن الدنيا بأكثر ما نهتكم به الدنيا عن نفسها ، فإن كل ما بها يحذر منها وينهى عنها ، وكل ما فيها يدعو إلى غيرها . وأعظم مما رأته أعينكم من فجائعها وزوالها ، ذم كتاب الله لها والنهى عنها فإنه يقول تبارك وتعالى : « فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور »[٣] . وقال : « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد »[٤] . فاكتفوا بمعرفتكم بها وبإخبار الله عنها ، واعلموا أن قوماً من عباد الله أدركتهم عصمة الله فحذروا مصارعها وجانبوا خدائعها ! وآثروا طاعة الله فيها وأدركوا الجنة بما تركوا منها . . .

* * *

● من كلام الأعراب :

قال الأصمعى : أصابت الأعراب أعوام جدب وشدة وجهد . فدخلت طائفة منهم البصرة وبين أيديهم أعرابى يقول : أيها الناس . . إخوانكم فى الدين ، وشركاؤكم فى الإسلام ، وعابرو سبيل ، وظلال بؤس ، وصرعى جدب ، تتابعت علينا سنون ثلاث ، غيرت النعم ، وأهلكت الغنم ، فأكلنا ما بقى من جلودها فوق عظامها ، فلم نزل نعلل بذلك أنفسنا . وغنى بالغيث قلوبنا حتى عاد مخنا عظاماً ، وعاد إشراقنا ظلاماً ، وأقبلنا إليكم يصرعنا الوعر ، ويكننا السهل ، وهذه آثار مصائبنا

---

(١) الكهف : ٤٩ .
(٢) الأنبياء : ٤٧ .
(٣) لقمان : ٣٣ ، وفاطر : ٥ .
(٤) الحديد : ٢٠ .

لائحة فى سماتنا . فرحم الله متصدقاً من كثير ، ومواسياً من قليل ، فلقد عظمت الحاجة ، وكسف البال ، وبلغ المجهود . والله يجزى المتصدقين .

* * *

ووقف أعرابى بقوم فقال : أشكو إليكم أيها الملأ زماناً كلح فى وجهه ، وأناخ على كلكله ، بعد نعمة من المال وثروة من الآل ، وغبطة من الحال ، اعتورتنى جرائده بنبل مصائبه عن قسى نوائبه ، فما ترك لى ثاغية أجتدى ضرعها ، ولا راغية أرتجى نفعها ، فهل فيكم من معين على صرفه ، أو معد على حتفه ؟

* * *

وأملى أعرابى يقال له « مرثد » دعاء فكان منه : يارب . . تظاهرت على منك النعم ، وتداركت عندك منى الذنوب فلك الحمد على النعم التى تظاهرت ، وأستغفرك للذنوب التى تداركت .

يارب أمسيت عن عذابى غنياً ، وأصبحت إلى رحمتك فقيراً .

اللهم إنى أسألك نجاح الأمل عند انقطاع الأجل .

اللهم اجعل خير عملى ما ولى أجلى .

اللهم اجعلنى من الذين إذا أعطيتهم شكروا ، وإذا ابتليتهم صبروا ، وإذا ذكرتهم ذكروا .

واجعل لى قلباً تواباً أواباً ، لا فاجراً ولا مرتاباً .

واجعلنى من الذين إذا أحسنوا ازدادوا ، وإذ أساءوا استغفروا .

أدعوك دعاء ضعيف عمله ، متظاهرة ذنوبه ، ضنين على نفسه دعاء من بدنه ضعيف ، ومنته عاجزة ، قد انتهت عدته ، وخلقت جدته ، وتم ظمؤه .

اللهم لا تخيبنى وأنا أرجوك ، ولا تعذبنى وأنا أدعوك .

اللهم إنى أعوذ بك من الفقر إلا إليك ، ومن الذل إلا لك .

وأعوذ بك أن أقول زوراً أو أغشى فجوراً أو أكون بك مغروراً .

وأعوذ بك من شماتة الأعداء ، وعضال الداء ، وخيبة الرجاء ، وزوال النعمة .

* * *

● وصية أعرابية لابنها :

قال أبان بن تغلب ـ وكان عابداً من عباد البصرة ـ شهدت أعرابية توصى ولداً لها وقد أراد سفرا وهى تقول : « أى بنى .. اجلس أمنحك وصيتى ـ وبالله توفيقك ـ فإن الوصية أجدى عليك من كثير عقلك . قال أبان : فوقفت مستمعاً لكلامها ، مستحسنا لوصيتها ، فإذا هى تقول :

أى بنى : إياك والنميمة فإنها تزرع الضغينة ، وتفرق بين المحبين . وإياك والتعرض للعيوب فتتخذ غرضاً ، وخليق ألا يثبت الغرض على كثرة السهام ، وقلما اعتورت السهام غرضاً إلا كلمته . وإياك والجود بدينك والبخل بمالك . وإذا هززت فاهزز كريماً يلين لهزتك ، ولا تهزز اللئيم فإنه صخرة لا ينفجر ماؤها .

ومثل لنفسك مثال ما استحسنت من غيرك فاعمل به ، وما استقبحت منه فاجتنبه ، فإن المرء لا يرى عيب نفسه . ومن كانت مودته بشره ، وخالف منه ذلك فعله ، وكان صديقه منه على مثل الريح فى تصرفها . ثم أمسكت ، فدنوت منها فقلت : بالله يا أعرابية إلا زدته فى الوصية .. قالت : أو قد أعجبك كلام العرب يا عراقى ! قلت : نعم . قالت : والضرر أقبح ما تعامل الناس بينهم ومن جمع بين الحلم والسخاء فقد أجاد الحلة ، ريطتها وسربالها »[1] .

* * *

(١) الريطة : الملاءة إذا كانت واحدة ، والسربال : القميص .

● وصية أعرابى لأخيه :

« آثر بعملك معادك ، ولا تدع لشهوتك رشادك ، وليكن عقلك وزيرك يدعوك إلى الهدى ، ويعصمك من الردى ، وألجم هواك عن الفواحش ، وأطلقه فى المكارم ، فإنك تبر بذلك سلفك وتشيد شرفك ، وابذل الصداقة تستفد إخوانا . وتتخذ أعوانا فإن العداوة موجودة عتيدة ، والصداقة متعذرة بعيدة ، وجنب كرامتك اللئام ، فإنك إن أحسنت إليهم لم يشكروا ، وإن نزلت شديدة لم يصبروا » .

* * *

● أعرابى يفحم الحجاج :

خرج الحجاج ذات يوم فاصحر[1] وحضر غداؤه فقال : اطلبوا من يتغدى معنا ، فطلبوا فلم يجدوا إلا أعرابيا فى شملة فأتوه به . قال : هلم . قال : قد دعانى من هو أكرم منك فأجبته . قال : ومن هو ؟ قال : الله تبارك وتعالى . دعانى إلى الصيام فأنا صائم . قال : صوم فى مثل هذا اليوم على حر ؟! قال : صمت ليوم هو أحر منه ؟؟ قال : فافطر اليوم وتصوم غدا .

قال : أو يضمن الأمير لى أن أعيش إلى غد . قال : ليس ذلك إلى . قال : فكيف تسألنى عاجلا بآجل ليس إليه سبيل ؟؟ قال : إنه طعام طيب . قال : والله ما طيبه خبازك ولا طباخك ولكن طيبته العافية . قال الحجاج : تالله ما رأيت كاليوم ، أخرجوه عنى ؟

* * *

● مواعـــظ :

قال صاحب الأمالى : حدثنا أبو بكر بن دريد رحمه الله . قال : حدثنا

(١) بلغ الصحراء ودخلها .

العكلى عن أبيه قال : بلغنى عن ابن عباس أنه قال : كتب إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه بموعظة ما سررت بموعظة سرورى بها . أما بعد : فإن المرء يسره درك ما لم يكن ليفوته ، ويسوؤه ما لم يكن ليدركه ، فما نالك من دنياك فلا تكثر به فرحا ، وما فاتك منها فلا تتبعه أسفاً . وليكن سرورك بما قدمت ، وأسفك على ما خلفت وهمك فيما بعد الموت .

* * *

وأنشدنا أبو عبدالله إبراهيم بن محمد بن عرفة الأزدى . قال : أنشدنا أحمد بن يحيى الشيبانى :

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل : على رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما يخفى عليك يغيب

* * *

قال : وأنشدنا أحمد بن يحيى :

فى كل بلوى تصيب المرء عافية إلا البلاء الذى يدنى من النار
ذاك البلاء الذى ما فيه عافية من العذاب ولا ستر من العار

* * *

وأنشدنا أبو محمد النحوى قال : أنشدنا أبو عباس محمد بن يزيد قال : أنشدنى عمرو بن بحر الجاحظ ، قال : أبو محمد - والشعر لصالح ابن عبدالقدوس :

وإن عناء أن تفهم جاهلا فيحسب جهلا أنه منك أفهم
متى يبلغ البنيان يوماً تمامه إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم
متى ينتهى عن سيىء من أتى به إذا لم يكن معه عليه تندم

* * *

وأنشدنا أبو عبدالله ، قال : أنشدنا محمد بن يزيد ، قال : أنشدنى عبدالله بن القاسم ، قال : أنشدنى العتبى :

تأنقت فى الإحسان حتى أتيته إلى ابن أبى ليلى فأنزله ذما
فوالله ما آسى على فوت شكره ولكن خطأ الرأى يحدث لى غما

* * *

وحدثنا أبو بكر بن دريد قال : حدثنا أبو حاتم قال : كان بالمدينة غلام يحمق ، فقال لأمه : يوشك أن ترينى عظيم الشأن . قالت : والله ما رجوت هذا الأمر إلا من حيث يئست منه . فقال : أما علمت أن هذا زمان الحمقى وأنا أحدهم !!!

* * *

خـــاتمـــة

اتفقت كلمات الدارسين على أن الإسلام أتى العالم بعد اكتمال رشده ، واستواء خصائصه النفسية ومواهبه الذهنية ، وأن رسالته جاءت كتاباً يخاطب الألباب . ويناشد الضمائر ، وأن أدلتها تجاوزت طور الإعجاز المادي بالخوارق الباهرة إلى الإقناع العقلى بالمقدمات التى تلفت الحس ، والنتائج التى تملك النفس .

أجل . . إنهم اتفقوا على ذلك ، ونالت هذه الحقائق نصيبها من طول الشرح فلا نضيف إليها مزيداً ، وإنما نريد أن نشرح خاصة أخرى فى الإسلام يربطها بهذه الحقائق نسب قريب ، تلك الخاصة هى ما يتعلق بحماية الدعوة وتمهيد سبلها ورد خصومها ، ودفع غوائل المبطلين عنها . فإن الإسلام ممتاز عن الديانات السابقة بطبيعة تزوده بأسباب المناعة . كما يمتاز الجسم المحصن ضد أنواع الحمى .

ألا ترى « المصل » الذى سرى فيه يمنحه مقاومة للأوبئة المهتاجة ؟ كذلك الإسلام ! إن العناية العليا ادخرت فى كيانه طاقة يرد بها البلى ، وقوة يغالب بها العلل ، وقدرة على التجدد والكفاح تعيى الخصوم ، وتهزم الليالى . وكأن الله أراد أن يجنبه مصاير كثير من رسالات الإصلاح التى حملها النبيون الأوائل وأن يجعله تراثاً مصون الجوهر قريب النفع إلى الأبد .

فلنلق نظرة عجلى على هذه الرسالات الأولى وما لقيت من كيد ، وما واجهت من ختام ، لنعرف سر الخاصة التى تفرد بها الإسلام ، وكتبت له خلوداً لم يعرف لغيره . . . أول ما نلقاه فى مسير الديانات الأولى والعوائق التى اعترضتها أن كفة الشر كانت أرجح ، وأن سطوته على الناس كانت أظهر ، وأنه ـ لولا تدخل السماء ـ لحصد الإيمان وأهله دون هوادة . ولم يكن ذلك الضعف الذى أذل جانب الدين عن قصور فى

بيانه . أو تقصير فى حمايته ، بل لأن ضراوة الكفر بلغت حداً رهيباً من الجسامة !! وإلا فقد ظل نوح عليه السلام بضعة قرون يدعو قومه بكل أسلوب دون جدوى :

« قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهاراً . فلم يزدهم دعائى إلا فراراً . وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً . ثم إنى دعوتهم جهاراً . ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً . فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً . . »[1] .

بيد أن هذه المناشدة الحارة ذهبت سدى ، وبقى المجتمع الكنود على كفره . لم يتغير من أحواله المضطربة شىء ولم يستقم له حال . واتضح أن موجة الكفر فى مد متتابع وأن مستقبل هذه الجماعة لن يكون إلا صورة مكررة لحاضرها السيىء . بل إن نطاق الإيمان ينقص ولا يزيد . وذلك ما جعل نوحاً ينادى : **« رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً . . »**[2] .

وهيمنة الضلال على المجتمع . التى أحنقت نوحاً وأحرجته . أخذت طابعاً أقسى فى رسالات أخرى أعقبته . فقد بلغ من استمكان العتو فى أرض مدين أن هدد الكفر ـ وزمام الأمر بيده ـ بطرد شعيب . ونفى المؤمنين من أتباعه . إن هم ظلوا يؤمنون بالله ويدعون إلى القسط !! **« قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا »**[3] .

وكذلك صنعت قرى المؤتفكة مع نبيها الذى يعلمها العفاف . ويجنبها

---

(١) نوح : ٥ ـ ١٠ .

(٢) نوح : ٢٦ ـ ٢٧ .

(٣) الأعراف : ٨٨ .

الشذوذ . ويريد تطهير أنديتها من المنكر . لقد كان صوت الفساق من العلو والقحة بحيث لم يستح أن يتوعد الأطهار بالطرد « قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين . قال إنى لعملكم من القالين . رب نجنى وأهلى مما يعملون »[١].

وكما تأيدت دعوات أولئك الأنبياء السابقين . بالخوارق المعجزة فإن تخليصهم من براثن عدوهم تنزلت به آيات من السماء . وتولته ملائكة الله جل شأنه على النحو الذى وعاه التاريخ ودونه الوحى . لكن الرسالة الخاتمة لها فى ذلك الميدان شأن آخر . فإن الإيمان الذى تهدى إليه يعتمد فى رسوخه النفسى على حركة العقل الذكى والقلب المنيب ، ويعتمد - فى بقائه الخارجى - على عمل اليد الدؤوب وكدح الإنسان المجاهد .

أجل . . على المرء أن يؤمن بإيقاظ فكره . . فإذا تيقظ واهتدى فعليه أن ينتصب لحماية هذا الإيمان بكل ما لديه من قوى . لا : بل عليه أن يخلط هذا الإيمان بشئون الحياة ليجعل منه قانوناً تصلح به الأوضاع ، ومناراً تعرف به الغايات وحضارة يصطبغ بها الركب السائر . وتتوارثها الأجيال اللاحقة عن الأجيال السابقة . وعليه - إلى جانب ذلك - أن يجالد دونه الخصوم . وأن يرمق ذهاب جذوره فى الأرض . واستطالة أغصانه فى الجو ، وهو حارس ناشط ، يرهب العادين . ويصد المجرمين . .

إن الإسلام الذى قام على كتاب يؤسس الإيمان باستثارة المواهب الإنسانية ، دون جنوح إلى الخوارق المعجزة ، اعتمد فى صيانة الرسالة واستدامة نورها وكسر خصومها على جهود المؤمنين أنفسهم ، ومدى ما يبذلون من تضحيات غالية ، دون انتظار للآيات السماوية التى تقهر الخصوم وتستأصل شأفتهم .

ولذلك ترى الإسلام يغالى بكل عمل صالح ، من شأنه أن يمد رواق

---

(١) الشعراء : ١٦٧ - ١٦٩ .

الإيمان فى الحياة العامة ويحكم هيمنة الدين على الجماعة . إن مثل هذا العمل العام أرفع عند الله أجراً ، من أى عمل آخر . لأنه أوسع فى الحياة أثراً . قد تكون الصلاة عبادة جليلة القدر ، لكن العمل الذى يؤديه المؤمن ـ إعلاء لكلمة الله ، وتمكيناً لشريعته ـ أعظم . لماذا ؟ لأنه لولا هذا الجهاد ما استطاع مصل ولا صائم أن يقوم لله بحق ، وتأمل فى هذه الآثار النبوية ينكشف لك وجه الصواب :

١ ـ عن أنس رضى الله عنه قال : « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أجر الرباط فقال : من رابط ليلة حارساً من وراء المسلمين كان له أجر من خلفه ممن صام وصلى » .

٢ ـ وعن مجاهد عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه كان فى الرباط ففزعوا الى الساحل ثم قيل : لا بأس ـ أى لا خوف من عدوان ـ فانصرف الناس وأبو هريرة واقف فمر به إنسان فقال : ما يوقفك يا أبا هريرة فقال : سمعت رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول : « موقف ساعة فى سبيل الله خير من قيام ليلة القدر عند الحجر الأسود » .

٣ ـ وعن ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ألا أنبئكم بليلة أفضل من ليلة القدر ؟ حارس حرس فى أرض خوف لعله ألا يرجع إلى أهله » .

٤ ـ وعن عثمان رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول : حرس ليلة فى سبيل الله أفضل من ألف ليلة يقام ليلها ويصام نهارها » .

وهذا التنويه الغريب بالجهاد إنما يرجع إلى أنه الحزام لشعائر الإسلام وأنواع الطاعات فإذا انقطع لضعف أو وهن ذهبت كلها بدداً وتلاشت فى الحياة سدى . وقد رأينا الأذكياء يرفضون مسالك الزهاد ممن آثروا العزلة واستحلوا عبادة الله بعيداً عن الناس .

وروى أن بعض العلماء خرج فصعد إلى رأس جبل اجتمع فيه العباد والزهاد منقطعين إلى طاعة الله - كما يزعمون - فقال لهم : أتجلسون فى مأمن هنا وتتركون الإسلام تعبث به الأهواء الظلوم والنحل الفاسدة ؟ أما كان خيراً لكم ولدين الله أن تخالطوا الناس وأن تناضلوا عن سبيل الله بالحجة والبرهان إن فاتكم الدفاع عنه بالسيف والسنان ؟ وذلك حق . فإن الإسلام يرفض بتة هذه المواقف السلبية تجاه الضلال .

إنه يفترض على المسلم الذى يعتنقه أن يتحول به إلى قوة خلاقة تزرع الخير فى كل ناحية وتقتلع من حوله الأشواك . ومن هنا لم يتعب الشيطان من شيء تعبه من هذا الدين الذى يبنى النفوس على الحب فى الله والبغض فى الله ، والذى يأبى مهادنة المنكر أبد الدهر . فإن أعياه الانتصار عليه وحسم مادته ، استبقى له فى الضمائر كراهية كامنة تتربص به الدوائر .

وبهذه الخاصة نجا الإسلام من المصاير التى طوت ديانات أخرى قبله ، وبقيت فيه الحقيقة التى تاه عنها كثيرون من الأوائل . نعم ، بقيت مصونة كما نزلت من السماء برغم ما ألقى عليها الدهر من ظلال .

لقد ظهر نبى الإسلام منذ أربعة عشر قرناً ، بعد عشرات ومئات من المرسلين الذين سبقوه إلى هداية الخلق وتعليم الأمم . وكانت النتائج المستخلصة من الماضى الطويل لا تدع مجالا لتحسين الظن بالضلال وأهله « **إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا إذن أبداً** »[1] .

ومن ثم تجاور فى تعاليم الإسلام ، أن الإيمان بالحق والجهاد عنه صنوان ، وأن نبذ الكفر وتقليم أظافره أخوان لا يفترقان . . وأن القضاء العدل ، والسلطة المنفذة له أمران لا ينفكان . وبذلك المنطق شق الإسلام طريقه فى الحياة وسط شرك طالما قهر التوحيد ، وجبروت طالما استباح

(١) الكهف : ٢٠ .

الأمم ، وأضل الأجيال ، شق طريقه دون أن يأبه للعصابات القطاع وهى تقول : إن سيفه مخوف الحد ، شديد الفتك . ليكن ، وما يعيبه هذا ، وهو إنما خلص بحياته منكم على ضوء بريقه !!

إن شكايات اللصوص من بطش رجال الشرطة لا معنى لها ، والذين يسمعون لها هم الذين ضاقوا بالقوة فى كنف الإسلام ، أقوام مريبون ، كانوا ـ قبحهم الله ـ يبتغون الإجهاز عليه ، فلما ارتدوا مدحورين أخذوا يسبون سيفه ، ويشتمون قوته . . !! وذلك ـ فى نظرنا ـ أفضل من أن يقفوا على جثته يرسلون دموع التماسيح .

* * *

وكأن الله ألهم الفاروق « عمر » رضى الله عنه هذه الحقيقة عندما جعله يؤرخ بالهجرة لسير الإسلام فى الأرض . إن هذه الهجرة تعنى أن المسلم يحيا لله ولرسوله ، ويربط مستقره فى أى بلد بمقتضيات العقيدة التى ارتضاها ، فهو يتبعها حيث تزدهر وتؤتى ثمارها . وبون بعيد بين من يجعل نفسه وماله وأهله تبع إيمانه الأثير وغايته الرفيعة .

ومن يحيا على أى وضع وفى أى ظل . والغريب أن الله جعل العزة والسيادة للأولين ، ومكن لهم فى العالم بقدر ما خدموا دينه وأقاموا أمره . . . على أن الجهاد العلمى أرفع رتبة وأسبق مكانة من الجهاد الحربى .

فالناس ـ أولا ـ أحوج إلى من يعرفهم الحق ، حتى إذا انشرحت به صدورهم تطلعوا إلى ما يستبقيه فيهم ، وإلى ما يثبتهم عليه ، وإلى ما يورثه ذراريهم بعد انقضائهم . . . فالحق أساس ، والجهاد حارس . وهبك زرعت حديقة يانعة مهدلة الأفنان ثم أنشأت حولها سياجاً يقيها السطو والاختلاس ، ما تظن قيمة هذا السياج إذا انقطع عن الحديقة الماء فذوى باسقها ، وجف مخضلها ؟.

أو ما قيمة هذا السياج إذا أصابها إعصار فيه نار فاحترقت ؟؟ إن السياج عندئذ سيكون مضروباً حول صحراء لا خير فيها .. والعلماء عندما يكتبون ويخطبون ، وعندما يربون ويتعهدون ، وعندما يحلون أو يرتحلون ، وعندما يدافعون ويجادلون . إنما يغرسون فى النفوس حقائق الوحى وهدايات السماء . ويخلفون أنبياء الله جل شأنه على رعاية الخلق ، وإحسان قيادتهم ، وكفالة حاضرهم وغدهم .

وقد راعنا ـ معشر الدعاة ـ أن مواطن الإسلام فى هذا الزمان تتعرض لعبث هائل فى قوامها الروحى والفكرى . وأن أسراباً من الحشرات الفتاكة انطلقت مع زحف الاستعمار الأخير ، وشرعت تجتاح الأخضر واليابس فى ميادين العقائد والأخلاق . وأن آمال الزبانية تركزت بكل ما واتاها من قوى باطشة وسياسات خاتلة لتجعل الإسلام أثراً بعد عين . .

ونحن نمد الطرف يمنة ويسرة ، نبحث عن العلماء الدعاة ليذودوا هذا البلاء ، ويتلافوا تلك المحنة . . . يجب أن يبقى الإسلام فى الأرض لتبقى لها صلة بالسماء ، وليبقى بين الأحياء رسالة تكفل لهم الرشد واليمن ، وتقيهم العثار والزلل . . .

لن تنقطع حاجة العالم إلى الإسلام إلا يوم تستغنى العيون عن الضياء ، والصدور عن الهواء . . . فيا دعاة الإسلام فى المشارق والمغارب أدوا حق الله عليكم ، وانقلوا الإسلام إلى الأجيال اللاحقة نقيا مصفى ، كما انتقل إليكم عن الأجيال السابقة .

خذوا حذركم من أعداء الحقيقة ، الذين قاتلوا الأنبياء فى العصور الأولى ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا . أعيدوا الحياة الصحيحة إلى الأفئدة الفارغة والرءوس الخربة ، ليتحاب الناس بروح الله ، ويتعارفوا على هداه . . .

* * *

محتويات الكتاب

موضوعات الكتابة المعاصرة

مقاومة الهدامين

الصفحة

نمــاذج حيــة

زاد الدعـــاة



رقم الايداع : ٣٨٠٠ / ٩٢
الترقيم الدولى : 0 – 0382 – 08 – 977
I. S. B. N.